رواية

منزل ابليس

د. إياد درويش



رواية

منزل ابليس

.منذ نعومة اظافرنا ونحن نخشي من المجهول.. نحن لا نعلم لماذا نخشاه
نحن فقط نخشاه.. ماذا لو قررنا ان نسبر غور هذا المجهول.. نعبر بوابات الغموض .
!!!ونبحر بين شطآن الخرافة لنصل الي بر الحقيقة المطلقة. او كما نعتقد .
.طبيب نفسي في رحلة بين الماضي والحاضر
..فارس عربي اصيل يحارب قوي الشر في الماضي لينقذ فتاة في قرننا هذا
...لعنة قديمة وطلسم عجيب
.صراع ابدي بين الخير والشر
عندما يتلاشي هذا الخط الرفيع الفاصل بين الوهم والحقيقة. سيأخذنا هذا الكتاب في رحلة الي اقصي
،ما في النفس البشرية، حيث الرعب في أعتي صوره
..حيث لا يستطيع احد ان يبوح بالسر. فمن يتحدث هالك لا محاله
..رحلتنا ليست كأيه رحلة
رحلتنا تحبس الأنفاس من فرط الخوف . حذاري ان تدخل تلك القرية القابعه في الجنوب حيث زعموا قديما انها البلدة
التي هبط اليها إبليس الملعون من السماء عندما عصي ربه. فسموها تيمنا بهذا الحدث الرهيب



كاتب وروائي وطبيب مصري من ابناء محافظة الشرقية
حاصل علي بكالوريوس الطب والجراحة
ثم ماجستير الجلدية والتناسلية من جامعة الزقازيق. شغل عدة مناصب قيادية
وعمل مديرا عاما لمستشفيات الشرقية ، له عده روايات تحت الطبع

.د.إياد درويش

منزل إبليس

منزل إبليس

رواية

د.إياد درويش

الطبعة الأولى : ٢٠٢٠

رقم الإيداع : ١٧١٦٢ / ٢٠٢٠

ISBN 978-977-85773-1-0

١٣٢ ص ، ٢٠ سم

دار إضافة للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج.م.ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار

غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

منزل إبليس

رواية

د. إياد درويش



إهداء

إلى روح أبي الحبيب الذي كنا أغلى عليه من روحه.

إلى مي الحبيبة التي رحلت عنا دون أن ندري.

إلى زوجتي الحبيبة.

إلى أحمد وهيا وجودي.

إلى أختي الوحيدة التي منّ الله بها علي.

إلى القارئ المصري الذي يستحق أفضل بكثير مما يجد.

أهدي لكم هذا الكتاب.

تنويه

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العلية باسم "القوي" في كثير من النصوص القرآنية، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم معرفًا بأل، مقترنًا باسم الله العزيز في موضعين؛ الأول قال تعالى:
"إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" [هود:٦٦].
وفي موضع آخر في قوله تعالى: "اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" [الشورى:١٩].
وورد أيضًا منوّنًا في خمسة مواضع منها قوله تعالى: "مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" [الحج:٧٤] .

أما في السُّنّة فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عن يوم الخندق:
"وبعث الله عز وجل الريح على المشركين فكفى الله عز وجل المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا" [رواه أحمد عن عائشة].

❊ ❊ ❊

يناير ٢٠١٤

أشار طه للسيارة الأجرة فتوقفت السيارة في عرض الطريق، الأمر الذي تسبب في تعطيل حركة المرور في الشارع الذي لا يتعدي عرضه الثمانية أمتار، السائق: على فين يا أستاذ؟

- مستشفي الجامعة.
- عشرة جنيهات.
- عشرة جنيه؟ ليه هو أنت هتطلع بيا المطار؟!

تضرب السيارات خلف السيارة الأجرة أبواقها وقد نفد صبر سائقيها مما يحدث، وفي النهاية يومئ طه برأسه ويفتح باب السيارة ويدلف داخلها، وأخيرًا يتحرك السائق قائلا: عطلتنا يا أستاذ.

يتسرع طه متسائلا بصدق: أنا؟ أنا الذي أوقفت السيارة في نهر الطريق؟ يضحك السائق ويبتسم طه.

يسند ظهره لمقعد السيارة بينما تجول عيناه في المارة وفي الزمان والمكان.

يتذكر نتيجته بتفوق في الثانوية العامة ودخوله كلية الطب بمجموع كبير، تذكر كيف تفوق فيها وتم تعيينه (نائب) طبيب مقيم بالمستشفى الجامعي فور تخرجه مباشرة، وقضى في تلك النيابة ثلاث سنوات حصل خلالها على ماجستير الأمراض النفسية والعصبية، تذكر كيف حالت الوساطة والفساد والمحسوبية دون تعيينه معيدًا بالقسم، وكيف اعتذرت الكلية عن التعيين في ذلك العام، آلمته الذكري وشعر بغصة في صدره، فكلما تخيل نسيانه للأمر كلما عادت له الذكرى تكويه بنارها، كدأبنا كلما أردنا نسيان شيء فنفاجأ بأننا لا نتذكر غيره، تذكر والده رحمه الله وحزنه الشديد على ضياع حق ولده الوحيد، وكيف عرض عليه بعض المعارف أن يقوم بدفع مبلغ من المال حتى يتسنى لابنه التعيين بالجامعة، وكيف ثار والده على هؤلاء المعارف وصاح في وجههم، لقد ربيت ولدي على مبادئ قد تعتقدونها بالية، ربيته أن قيمة الرجل في شرفه وفي خلقه وفي دينه وفي علمه، وأن ما تعرضونه على يسمى في عرفنا رشوة، وإن كانت الوسيلة الوحيدة لإعطاء ابني حقه بالتعيين في الجامعة هو أن يكون راشيًا، فلعنة الله عليها وظيفة..

تذكر طه أيضًا سفره للمملكة السعودية للعمل، والتي جلس بها خمسة أعوام يجمع المال، في انتظار انتصار القضية التي رفعها على الجامعة وعودته للعمل بها، ولكن الانتصار لم يأتِ، بل جاءت الهزيمة تلو الهزيمة، وكمحاولة يائسة أخيرة منه قرر طه العودة من الخارج وتسجيل رسالة الدكتوراه، وشرع في عمله الخاص بافتتاح عيادة صغيرة بوسط المدينة التي يقطن بها.

وصلنا يا أستاذ.... أفاق طه من شروده على صوت السائق وانتبه فجأة إلى أنهم أمام بوابة مستشفى الجامعة، فنقد السائق العشرة جنيهات، وترجل من السيارة واتجه صوب الباب، صعد الأدوار الأربعة، واتجه مباشرة إلى مكتب أستاذه وصديقه دكتور عبد المطلب أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بالكلية، استقبله الدكتور عبد المطلب بحفاوة شديدة، فقد كان وما يزال يشعر بالأسى، بل وببعض الذنب بسبب ما حدث له من عدم التعيين بالجامعة.. حيّاه طه باحترام شديد.

- أخبار الدكتوراة إيه؟

- والله....

- والله! والله مكسل ليه يا دكتور؟! خلص يمكن القضية تكسب.

- والله يا دكتور عبد المطلب أنا بقول تاخدني تدرّس على للطلبة أصول ال depression

- إكتئاب.... ليه كده بس؟ لسه بدري أوي يا طه.

-الوضع سيء والحياة كئيبة، و...

قاطعه أستاذه: أخبار العيادة إيه؟

نظر طه للمصباح بأعلى الغرفة وقال:

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

- يا بني أصبر، لسه بدري، هو أحنا شعرنا شاب من شوية.

أخذ طه يشبك أصابع يديه ويهز قدميه في دلالة واضحة على نفاد الصبر.

- وليس لدي أية رغبة للعمل في الرسالة.

- وبعدين يا طه؟!

رجع الدكتور عبد المطلب في مقعده وأنزل النظارة الطبية وتأهب لانقضاضة قوية، ولكن أعراض الاكتئاب المبدئي الجلية في قسمات وكلمات طه حالت دون الهجمة، فآثر النصح الخفيف، فهو يعلم ما يعتمل من مشاعر متأججة بداخل طه، ليس بدافع كونه أستاذه وصديقه فقط، ولكن لكونه طبيباً نفسياً في المقام الأول: إن شاء الله الأمور تحسن.

- فلوس السعودية تتساقط كما تتساقط أوراق الخريف.
- دا أنت أصبحت شاعر اكتئاب من الدرجة الأولى.
- أرجوك يا دكتور شوفلي حل، لكن بلاش تقول لي فلوزاك ولا إيفكسيور، ولا سيتا، كل ده جربته بلا أية فائدة.
- يا بني العلاج النفسي في المقام الأول يعتمد على استعداد المريض، وللا أنا لسه هعلمك يا دكتور؟ مفيش فايدة فيك.
- نعيب زماننا والعيب فينا.

وفي تلك اللحظة، دلف إلى الحجرة الطبيب المقيم وألقى التحية عليهما، ثم خاطب الأستاذ باحترام شديد قائلا:

- آسف جدا للمقاطعة، ولكن حالة ال schizophrenia تعبانة جدًا، وبدأت الهلاوس تزيد، ومحتاج رأي حضرتك.

أردف الدكتور عبد المطلب: الحالة دي لازم تشوفها يا طه؛ لأنها حالة فريدة من السكيزوفرينيا، مصاحبة بهلاوس سمعية وبصرية، أنا شفت فصام كتير أوي، لكن بصراحة الحالة دي فريدة جدًا من نوعها، يا أخي العلم ده كل ما الواحد بيتعمق فيه، كل ما يشعر بضآلته.

إلتفت طه لأستاذه ولكن عقله كان في مكان آخر...

انصرف ذهنه إلى السبب الرئيسي لمجيئه إلى الجامعة وزيارة أستاذه رغم ما يكلفه هذا الأمر من المرارة الشديدة، خاصة عندما يرى زملاءه ومن هم أصغر منه قد أصبحوا مدرسين وأساتذة بذات القسم، بينما أصبح هو غريبًا عليهم.

رحل بعقله لثلاثة أيام مضت، وتذكر الأمر الذي لم يفارق مخيلته طوال الثلاثة أيام الماضية.

تذكر وهو جالس في عيادته الخاصة التي افتتحها منذ ما يقرب الستة أشهر، كان جالسًا بغرفته بالعيادة يقرأ في تلك المجلة الدورية في علم النفس المقارن، حيث وجد مقالا قديمًا عن موضوع لطالما أثار اهتمامه، وهو موضوع اضطراب تعدد الشخصيات في علم النفس ما بين الوهم والحقيقة، عندما دخلت عليه الممرضة قائلة: الحمد لله يا دكتور مريضان اليوم وإن شاء الله كم شهر وتمتلئ العيادة بالزبائن، ينظر في ساعته وقد شارفت على العاشرة مساء، وهو نهاية دوامه في العيادة: خلاص يا أم محمد، أغلقي العيادة.

وإذا بصوت طرقات على الباب الخارجي للعيادة، فابتسمت أم محمد واتجهت مسرعة مستبشرة لترى من الطارق، بعد دقيقة دلفت أم محمد مبتسمة تمسك بملف قائلة: مش بقول لك خير يا

دكتور، أدي مريضة ثالثة النهاردة، ووضعت ملف الحالة الجديدة أمامه..

- خير يا أم محمد، خليهم يدخلوا بسرعة زبائن آخر الليل.

❋ ❋ ❋

الاسم: سارة سليمان. السن ٢٤ سنة.

دخلت إلى حجرة الكشف فتاة بيضاء جميلة في بداية العشرينات، وقد عقصت شعرها خلف رأسها في أرستقراطية بائدة، رقيقة هي ترتدي ملابس بسيطة ولكنها أنيقة، عيناها... نعم إنهما عيناها، فيهما شيء عجيب، واسعتان تسيطران على الوجه بأكمله، مع فم صغير وأنف دقيق وأذنين.... حقا إنهما عيناها، تعلمون تلك العيون التي إذا نظرت للوجه لا ترى سواهما، ولا تستطيع نسيانهما ما حييت، فقط يشوب هذا الجمال ذلك السواد الذي يظهر جليًا حول العينين كدليل دامغ على الأرق، وبالرغم من المحاولات الجلية لمداراة ذلك الاسمرار ببعض المساحيق التجميلية، إلا أنها فشلت فشلا ذريعًا، بل قد تكون أدت إلى إظهاره أكثر.

مدت يدها إليّ بالسلام وهي تتحاشى النظر في عيني: مساء الخير يا دكتور.

وجدت نفسي أقف وأمدّ يدي إليها: مساء النور.

- أنا سارة سليمان.

- أهلا وسهلا.

جلست ولكنها ما زالت لا تستطيع أن ترفع عينيها: مش عارفة أبدأ منين.

ابتسمت لها قائلا: أبدئي من الأول.

كنت ملولاً والساعة بالفعل تعدت العاشرة وبرد يناير لا يرحم والشلة في انتظاري، كنت قد تعودت بطبيعة عملي على الديباجات والافتتاحيات المبدئية للكشف النفسي، ولكن بالرغم من هذا شعرت بشيء غريب يجبرني على الاسترخاء، من الممكن أن يكون جمالها أو عيناها.. نعم إنهما عيناها، كلما نظرت إليهما لا تستطيع أن ترفع عينيك وكأنهما يربطان من يناظرهما بحبل متين غير مرئي، قليلة هي تلك العيون التي تأسرك من النظرة الأولى، وكلما حاولت الفرار من تأثيرهما، كلما زاد شغفك وتعلقك بهما، وفي النهاية تصبح في حيرة أتخبئ اهتمامك بهما وأنت مفضوح لا محالة، أم تتخلى عن وقارك ولا تخفض

عينيك عنهما... وفي النهاية اتخذت القرار الحكيم، أقصد الثاني، أقصد لم أخفض عينيّ عنهما.

- احكي يا سارة من الأول.

شرعت سارة تروي: أنا فتاة من أسرة متوسطة عمري ٢٤ عامًا، أنهيت دراستي بكلية الآداب قسم علم النفس.

- ياه.. دا إحنا زملاء على كده، قاطعتها لقياس ردود أفعالها، فقط ابتسمت، ثم أكملت: حياتي طبيعية جدًا مفيش فيها أي جديد.

سرح طه بفكره قائلا لنفسه: حالة اكتئاب تاني! الرحمة يا رب! ولكن سرعان ما تذكر ضرورة عدم الحكم بأفكار مسبقة عن تشخيص المريض قبل الفحص التحليلي كاملاً.

أكملت الفتاة: والدي ناظر مدرسة ثانوي، ووالدتي سيدة منزل من الطراز الأول، وأخي يحيي في الثانوية العامة، كل شيء طبيعي، حياة طبيعية تقليدية تمامًا، مفيش بها أي متغيرات.

- وبعدين... بعدم اكتراث قالها طه بعدما شعر أن إستراتيجية التحليل سوف تكلفه ساعة أخرى، فحاول المباغتة بإستراتيجية أخرى، واستعد للانقضاض عليها بوابل من الأسئلة الاستفزازية، عندما قالت سارة: وبعدين حصل اللي حصل...

تراجع طه في كرسيه المفتخر "أبو مسند" والذي كلفه ألف ريال تقريباً من فلوس السعودية المبصوص فيها..

- أيوه إيه بقى اللي حصل؟!

- حصل إن أنا مابقتش أنا.

- إزاي؟

- عفريت..

- نعم!!!

- عفريت يا دكتور..... لابسني عفريت.

- أهلا وسهلا.. قالها طه في نفسه، حالة سكيز من الأصلي من اللي وصى عليها فرويد في التذكرة، على "delusion" ضلالات من اللي حلها الوحيد الكهرباء.

أكملت سارة كلامها: فجأة تحولت حياتي لجحيم، بدأت رؤى غريبة تظهر في الحلم، أشباح ونار وعفاريت وصحراء، وبعدين بدأت حاجات غريبة تحصل في البيت، النار تولع في الفرش بدون سبب، اللوحات تقع لوحدها من الحيط، أقفل الباب يفتح وحده، ألاقي علامات إيدين على مواضع كتير في جسمي، وساعات تكون سايبة كدمات...

- أنت حضرتك بتتكلمي عادي كدة بدون أي خوف كأنك بتقري واقع.

- لأني مليت من كثر ما شفت، ولأنه حقيقي واقع.

- وأسرتك؟

- أهلي طبعًا لم يصدقوا في البداية لحد ما شافوه.

- هو مين اللي شافوه؟!

- في ليلة كنت مستلقية في حجرتي وبدأت القراءة في رواية ما.

وفي تلك اللحظة أدرك طه أن الليلة قد خربت تمامًا، وهو مستمر في هذا الخرف إلى الثانية ونصف بعد منتصف الليل.

- حضرتك معايا يا دكتور؟

أومأت برأسي أي نعم، وكلي حسرة على الليلة التي ضاعت في هذا التخريف.

أكملت حوارها مباشرة: كنت مستلقية على سريري بحجرتي أتصفح رواية ما، وأمام السرير مباشرة توجد مرآة كبيرة تتوسط الحائط وتمتد حتى قرب سقف الحجرة ممتدة من الأرض، وعندما حانت مني التفاتة إلى المرآة وجدت مشهدًا لا أعتقد أنني سأستطيع نسيانه ما حييت، لقد جمّد الدم في عروقي، وتسارعت ضربات قلبي بعنف، فهناك في المرآة وعلى بعد ثلاثة

أمتار مني لم يكن انعكاس صورتي أنا في المرآة، ولكن كان شيئا آخر وكأنه قد تم تصميمه في الجحيم ذاته، كائن مقزز، مرعب، مخيف.. لم أتمالك نفسي من هول ما أرى، صرخت وصرخت، ولكن كان هناك شيء ما يلجم لساني فلا يتعدى الصوت حلقي، حاولت أن أجري لكني كنت كالمقيدة التي لا تستطيع الحراك، وذلك الشيء الكريه ينظر لي في المرآة، ثم حدث ما لم أتخيله في أسوأ كوابيسي، لقد خرج هذا الشيء الرهيب من المرآة، ولا تسألني كيف فعلها، هو فقط خرج واقترب من سريري، وتوقف على بعد سنتيمترات مني، ثم مال برأسه إلى الأمام، ورفع نحوي يدًا تحوي مخالب ذات أظافر لا آدمية، ظللت أصرخ وأصرخ حتى لم أعد أشعر بشيء، وأحسبني غبت عن الوعي من شدة الخوف، وعندما أفقت وجدت أمي بجواري تحتضنني وهي تكثر من بسم الله الرحمن الرحيم، رحت أبكي بحرارة، وشرعت أحكي لها عما حدث، فربتت على رأسي وطمأنتني قائلة: لا تخافي يا حبيبتي، لا يوجد أي شيء، قلت لها: صدقيني يا أمي، لقد كان هذا المخلوق على قيد مليمترات مني. احتضنتني بقوة وقالت لي: إني أصدقك يا بنيتي في كل حرف ذكرتِه، فقد رأيته بعيني، فعندما فتحت باب الغرفة لمحت شيئا

مشعراً يدخل إلى المرآة، لا تقلقي، لقد وصفت لي خالتك ناهد أحد الشيوخ المجربين في التعامل مع هذه الأشياء العجيبة، وبإذن الله سيكون هناك حل.

باغتها طه بسؤاله كأي طبيب نفسي محنك: طب أومّال ماما فين؟ ليه ماجاتش معاكي؟ ليه جيتي لوحدك؟!

- أصلها مريضة جدًا اليومين دول وبابا معاها على طول..

أكملت: وبعدين ظلت الحالة تتدهور، وأخبروني أنني أتحدث بصوت غير صوتي، وأتفوه بألفاظ وكلمات أغلبها غير مفهومة، كل ذلك يحدث وأنا لا أشعر به.

- طيب أكيد زرتي أطباء نفسيين قبل كده.

- كتير، وكلهم قالولي إن دي حالة اسكيزوفرينيا.

- مضبوط، قالها طه بقوة وبسرعة كمن وجد طوق النجاة.

- هو إيه إللي مضبوط يا دكتور؟ بقولك بسم الله الرحمن الرحيم.

- مش عيب تكوني شابة متعلمة ومثقفة ودرستي علم نفس وتصدقي في الوهم ده يا سارة؟

- ده مش وهم يا دكتور، ده عايش معايا لحظة بلحظة، لدرجة إنه بقى موجود أكثر مني، لحظات الحضور أصبحت أكثر من المعقول، لازم على الأقل مرة يومياً.

- وخلال حضوره ده أنت بتكوني واعية أو دارية باللي بيجرى؟
- لأ، بحاول أقاوم في البداية، وبعدين يحكولي هم عن اللي حصل، بافوق مما يشبه الإغماء بعدها بدقائق.
- بتفوقي من الدور! حاول طه من البداية استخدم أسلوب الهجوم خير وسيلة للدفاع في محاولة يائسة للقضاء على الوهم، علمًا منه بأن الضلالات أصعب بكثير في علاجها أو حتى تشخيصها من الهلاوس.
- وبعدين؟
- وبعدين أنا عندك يا دكتور، شوف لي حل.
- وليه ماروحتيش لشيخ يعالجك؟!
- عشان أنا متعلمة زي ما حضرتك بتقول، ومعظمهم دجالين، لكن في الحقيقة حاولنا وكانت النتيجة أسوأ بكتير.

اعتدل طه في مقعده الفخيم وبدأ التحليل... كان يعلم جيدًا أن أصعب جزء في المرض النفسي هو اعتراف المريض بمرضه، وكان يعلم جيدًا أنه في حاجة لجلسات أكثر وحديث مطول مع أسرة الفتاة لكي يعلم بشكل أوضح أبعاد المرض، ولكنه اكتفى في الوقت الحاضر بمحاولة انتزاع اعتراف ضمني بالمرض النفسي.

- شوفي يا سارة، أعراضك أعراض سكيزوفرينيا مع ضلالات قوية، والمشكلة الأساسية اللي هتواجهنا في العلاج هي الضلالات، ودا لأنها بتكون ماسكة بإيد من حديد في خلايا المخ مبتطلعش بالساهل.

كان طه يمسك بالقلم كعادته وهو يحادثها ويخط على ورقة أمامه بعض الخطوط المتوازية، عندما رفع رأسه أمامه ليجد ما جعل الدماء تهرب من عروقه، لقد كانت الفتاة الجميلة التي كانت تتحدث معه منذ لحظات قد أعادت ظهرها لمسند المقعد الذي تجلس عليه، ورفعت حاجبها الأيمن وقد تغيرت سحنتها ناظرة إليه باحتقار لم يرَ مثله طوال حياته، ويقسم طه إنه من خلال سنين خبرته في مجال الطب النفسي أن تلك الفتاة لم تكن التي أمامه منذ لحظات، بالرغم من أن شكلها لم يتغير، ومن هول المفاجأة لا يتذكر أحقا كان صوتها مختلفا أم لا، وهي تنظر إليه بازدراء وتقول:

- مش هتعرف تعالجها.

استعاد طه بسرعة رباطة جأشه وقد فهم أن الشخصية الأخرى الخفية داخل سارة تريد أن تعبر عن نفسها، فمال بجزعه للأمام وابتدرها بسؤاله:

- مين هي اللي مش هاعرف أعالجها؟

سارة ضاغطة على كلماتها: مش هتعرف تعالجها لا أنت ولا غيرك يا دكتور. الصوت فعلا قد تغير، حنجرة ذكورية ليس هناك أي مجال للشك.

- طيب يا سيدي أنت مين؟

- خطر عليك.. خطر قوي يا دكتور خليك في حالك.

- هتعمل إيه يعني هتسخطني؟

ضحكت حتى بانت أسنانها، وانحنت للأمام بحركة فجائية حتى اقتربت بوجهها مني: أنت مش مصدق يا دكتور.. في حاجات كتير معلموهالكوش في المدارس.

- علمني يا عم.. منك نستفيد.

تمتع طه طوال عمره بثبات انفعالي قوي وبشجاعة يحسده عليها الآخرون، وقد لاح له أنه اقترب بشدة من تشخيص حالة الانفصام التي أمامه.

- مش هيحصل.. قالتها سارة بالصوت الرجولي إياه.

- هو إيه اللي مش هيحصل؟ إني أعالجك؟

- اللي نفسك فيه.. قالتها سارة بالصوت الرجولي إياه.

- اللي نفسي فيه أنا؟ قالها طه متهكما.

- أيوه اللي نفسك فيه.. أنت مش عايز تبقى أستاذ في الجامعة؟! مش هيحصل.

لوهلة كذّب طه أذنيه، واختفت نبرة الاستهتار والتهكم، بل وتوقف الزمن والكلام في حلقه، من أين لهذه الفتاة أن تعلم موضوع الجامعة والأستاذية وقضية عمره؟ فهو ليس مطربًا معروفًا أو نجم شباك حتى يعلم الناس كل شيء عن ماضيه، أو تهتم الصحف بنشر سيرته الذاتية.

وقف الكلام في حلقه، بينما استمرت هي تضحك باستهتار: خليك في حالك أحسن تتعب.

وفي تلك اللحظة وجد الفتاة تهتز بقوة والعرق الغزير يتجمع على جبهتها، فقام طه بسرعة من مكانه محاولا تهدئتها، ولكن الرجفة استمرت دقيقة تقريبًا، ثم فتحت الفتاة عينيها وعادت لسيرتها الأولى برقتها وصوتها الخفيض، وبدأت الدموع تتجمع في عينيها وتنهمر على وجنتيها، دقيقتان أخريان حتى استطاعت الكلام.

- أنا آسفة يا دكتور.. حضرتك شكلك قابلته؟

- قابلت من؟

- أنت لسة مش مصدق.

- أصدق إيه يا بنتي؟ أنت حالة انفصام واضحة.

- طيب ليه حضرتك متاخد كدة وعصبي؟

- بس من خوفي عليكي.

وبأصابع مرتجفة خط طه أي خرف في وصفة العلاج وأصر على طمأنتها مؤكدًا لها أن مرضها بسيط وأهم شيء فيه هو اعترافها بالمرض وإخراجها للضلالات تمامًا من حيز تفكيرها الواعي، وودعها على موعد بجلسة أخرى قريبة خلال أسبوع على الأكثر، خرجت الفتاة شاكرة لطه صبره، بينما ظل هو جالسًا في كرسيه عشر دقائق كاملة بعد انصرافها وقد شُلّ تفكيره بالكامل، حتى دخلت عليه أم محمد.

- خير يا دكتور؟ هي حالتها صعبة قوي كدة؟ في تلميح واضح لجمال الفتاة.

حاول طه الابتسام ولكن شيئا ما منعه..

"اللي نفسك فيه" راحت العبارة تتردد في عقله كأنها قادمة من جب سحيق، حتى أفاق من شروده على صوت أستاذه عبد المطلب: أنت فين يا طه؟ لا دا أنت حالتك ما يتسكتش عليها.

نفض طه تلك الذكرى من رأسه والتفت إلى أستاذه قائلا: والله يا دكتور أنا جاي لحضرتك النهاردة في موضوع محيرني جدًا.

وبدأ طه يسرد الحكاية من بدايتها لأستاذه وصديقه الذي لم يجد من هو أفضل منه ليستشيره، وظل الأستاذ ينصت باهتمام شديد حتى انتهى طه من سرد قصته، ابتسم الأستاذ وخلع نظارته ونظر في عيني طه مباشرة قائلا: وأنت رأيك إيه يا طه؟

- مش عارف، لكن وأنا باكلمها ظهرت عليها أعراض "MPD".

قهقه الرجل بعنف حتى كاد أن يسقط عن كرسيه، ثم أتبع الضحك بسعال عنيف حتى دمعت عيناه.

- ازدواج!

- أيوه، إيه المشكلة؟!

- المشكلة إن كل الدراسات والأبحاث بره لغت الازدواج كنوع من أنواع المرض العقلي، وبيضموها تحت نوع من أنواع الهستيريا النفسية باسم: ..dissociative identity disorder مرض نفسي مش عقلي، فاهم يا دكتور ولا مخك صدى من قلة القراءة؟

- لكن في المراجع حالات زي......

قاطعه أستاذه: أديك قلت في المراجع، كتب من التراث، أنا خمسة وعشرون عامًا في الطب النفسي ما شفتش حالة واحدة.

شوف يا طه، أنا عارف من زمان شغفك بالموضوع ده، وأعتقد إحنا اتكلمنا كتير بخصوصه، وأنا بقولك بصفتي أستاذك اللي بتثق فيه، مفيش حاجة اسمها ازدواج...

- يمكن تكون دي الحالة الأولى.

بدأ صبر الدكتور عبد المطلب ينفد، وشرع ينقر بأصابعه على المكتب قبل أن يزفر:

- يا طه، ماتقولش الكلام ده لحد عشان مايضحكش عليك، خليت إيه للجهلة؟!

- بس دي ماكانتش بتتكلم عادي، دي حتى مش شخصيتها الحقيقية.

- وأنت تعرف منين شخصيتها الحقيقية؟

- أقصد مش طبيعتها، زي أول ما دخلت عليّ الأول، حصل تحول.

- دي حالة صايعة يا طه محتاجة وقت.

للأسف كلام الرجل يبدو منطقيًا، فالازدواج أصبح سوقًا رائجة لأفلام الخيال العلمي فقط.

- طيب ورأي حضرتك إيه في موضوع الجامعة والقضية؟

- مين قال إنها عارفة موضوع الجامعة؟ ده مخك اللي صور وحمّض وكبّر ملأ الثغرات.

- لكن دي قالت اللي نفسك فيه.

- أكيد أي دكتور نفسه يكون أستاذ في الجامعة.. جري إيه يا طه؟ دا كلام عادي.. هو يعني ال double personality. هيعرف الغيب؟ ولا قصدك زي ما قالت لك الهبلة عفريت! عيب يا طه.. لما يجيلك العفريت تاني قلّبه واقراه، وشيل موضوع الازدواج وطلع موضوع الجن ده من دماغك واحكم بعقلك، هتلاقي حالة اسكيز من الأصلي، بس ابقى ادعيلي، ولو محتاج مساعدة أنت عارف أنا موجود.

خرجت أجّرر أفكاري خلفي، لهذه الدرجة أصبح اللعب بعقلك سهلا يا طه؟! فعلا تحليله متماسك قوي يعتمد على أدلة وحقائق دامغة، لكن من سمع ليس كمن رأى، من الممكن أن الإجهاد كان السبب في توتري وتشويش تفكيري، والفتاة بصدق قد فاجأتني فلم أستطع التفكير والمحاورة بعقلانية.

أخذتني قدماي للمنزل، فقد فضلت العودة مترجلا لكي أسمح بتصفية ذهني الذي قد تعرض لضغط شديد.

مارست بعض ضروريات الحياة اليومية، ومساء في العيادة، وبدأت تأخذني دوامة الحياة برتابتها، بل إني قد أرغمت نفسي على حضور المحاضرات الخاصة بالدكتوراة بالقسم، ونسيت موضوع الفتاة، أو بالأحرى ظننت أني نسيت، حتى جاءت تلك الليلة بعد ما يقرب من الشهر، تلك الليلة التي أحسست فيها بصداع عنيف يغلف رأسي طوال اليوم، عدت من العيادة مبكرًا، وقد أحضرت معي عشاءً جاهزًا من مطعم تم افتتاحه حديثا قريب جدًا من منزلي، أخبرني صديق لي عن مدى إعجابه بطعامهم، دخلت إلى المنزل، غيرت ملابسي وتناولت العشاء وأنا أشاهد التلفاز، تعودت منذ زمن على تشغيل التلفزيون ولكن بلا صوت، فالصورة المتحركة تعطيك إيحاءً بالحركة والحياة من حولك، بينما لا تؤذيك الأصوات وتعطي لخيالك المجال لتخيلات واحتمالات شتى لما يقوله المذيع أو ما تنطق به الممثلة في الفيلم، وإن كنت أحفظ معظم سيناريوهات الأفلام القديمة عن ظهر قلب، بعد العشاء، اتجهت صوب السرير، فتحت درجًا بجانبه وتناولت شريط تامول، أخذت منه نصف حبة، فقد توقفت المسكنات الطبيعية عن أي تأثير يذكر منذ دهر، ولم يبقَ في الميدان وحده إلا ال selective sertonin reuptake

inhibitors وكطبيب نفسي كنت أعلم جيدًا كيف أتمتع بالمزايا ولا أسقط في فخ مصائبه.

نصف حبة واحدة ولم أشعر بنفسي ولا بالسرير ولا....

* * *

الوقت كان ظهراً.

اختفت الغرفة، وظهرت شمس حارقة أجبرتني على أن أرفع كفي لأحمي عيني من ضوئها، الكف تحمل سيفًا عريضًا، نظرت للسيف في يدي والسروال الواسع الذي أرتديه والدرع الذي أتقلده، وذلك الفرس الأبيض الذي أمتطي صهوته.

نظرت حولي للأرض غير الممهدة، ورجال بجلابيب وسراويل واسعة معممي الرأس، وأمامي مباشرة باب خشبي عريض يناهز ارتفاع بناية من ثلاثة طوابق، وعلى جانبيه سور عالٍ، يقف على الباب ستة حراس يحملون الرماح.

تساءلت لا إراديًا: أين أنا؟

المنظر من روايات ألف ليلة أو من عصور السلاطين.. انتزعني من حيرتي صوت أحد الحراس يقول بصوت جهوري وبعربية فصيحة: حللت أهلا ونزلت سهلا يا سليمان بك. وقد خفض رمحه، وأحنى ظهره احترامًا في مهابة لم أتوقعها.

- إحنا فين؟! نطقها لساني الجاف.

اندهش الرجل لسؤالي، ثم أردف: جناب الوالي بانتظاركم من ليلة أمس.

أزاح الرجل المزلاج الخشبي المهول، ودفع ثلاثة حراس الباب معًا ليسمحا لي بالمرور إلى الداخل.

قلعة من قلاع السلاطين أو المماليك لست أدري! الجميع ينحني وأنا أتقدم بفرسي الأبيض وكأنني قد ولدتُ فارسًا على ظهر جواد، أتحكم باللجام وكأني أمسك بالقلم، أمسك أحد الجنود باللجام من يدي، وترجلت عن الفرس، ثم دخلت ما يشبه القلعة، قادني الحراس إلى بهو عظيم يفضي إلى مجلس كبير، زخارف ونقوش إسلامية تنطق بالعظمة تملأ الجدران، يتصدر المجلس رجل ذو لحية كبيرة بيضاء حاد الملامح قاسيها، يظهر عليه أثر النعمة والهيبة، رحب بي الرجل، وأشار لي بيده بالجلوس، ثم قال: حمدًا لله على سلامتك يا سليمان..

تساءلت: سليمان من؟!

تعجب الرجل لسؤالي، قائلا: يبدو أن الرحلة كانت شاقة.

- أية رحلة؟ أنا لا أدري عمَّ يتحدث هذا المجنون! قلتها في نفسي.

- الرحلة تأخذ يومين، في كم قطعتها؟

نظرت له نظرة خاوية من أي معالم... ولم أجِب..

وعلى المجلس أمامه اضطجع شيخٌ معمّم في الخمسين من عمره تقريبًا، أيضًا يظهر عليه أثر النعمة العظيمة.

- ماذا حدث يا سليمان؟ هل نسيت أنك في حضرة مولانا الوالي؟! -نطقها الشيخ المعمم- أم أن انتصاراتك المتتالية أنستك مكانة مولانا؟

- انتصارات! مولانا!

وجدت نفسي لا إراديًا أقول: اعذرني يا سيدي فإن ذهني مشوّش.

- لا بأس يا سليمان. جاءت بصوت عميق دافئ من فم الرجل العظيم: اقترب.

اقتربت منه ببطء، طفل يتعرف على غريب لأول مرة، أعطاني يده فأمسكت بها وقبّلتها لا إراديًا وأنا أتعجّب من نفسي.

- مولانا جناب الوالي طلب حضورك لأمر جلل، وأنت تدري أنه يدّخرك دائمًا لكل جلل. قالها الشيخ المعمم.

سكتّ... فأكمل: لقد رشحك مولانا بنفسه لتلك المهمة بصفتك أفضل فرسانه.

- أفضل فرسانه؟!

- نعم.. المهمة محددة وسريعة ولا تحتمل التأجيل، توجد قرية في الجنوب قرب أسيوط تسمي "منزل إبليس"، نزلت بها بعض الأحداث الغريبة، وقد ألقى العسكر القبض على فتاة تسببت

بترويع الناس، وأتت بعض الأفعال الدموية، الناس هناك تخشاها.. يقولون إنها ملبوسة، وقد ترددت الأقاويل عن قواها العجيبة وأفعال السحر والقتل البشع التي تتسبب فيها.

- ملبوسة! يعني أنا ماورايش غير الخرف ده؟ أرجع ٥٠٠ سنة وراء برده تطلع لي واحدة ملبوسة!

- والمطلوب مني؟ سألت.

- المطلوب منك باختصار القضاء على الأمر تمامًا.

- عذرًا يا مولاي، ولكن هذه الخرافات موجودة بكثرة في مصر، وبالذات في الصعيد، فمنذ متى أعرتها اهتمامك؟

أجاب الوالي بهدوء: أعرناها اهتماماتنا عندما قُتِل قائد عسكر الجنوب، ونحن لا ندري لمَ أو كيف، وكلما تحرينا أكثر كلما واجهتنا الألغاز.

ثم انحني إلى الأمام وأردف بقوة: قتلُ قائدٍ عسكري يزعزع ثقة الشعوب في حكامها.. أليس كذلك يا سليمان؟

صمتّ ثم أومأت برأسي أي نعم.

- من حينك تتجه إلى البلدة المنشودة، مصرّح لك بتفويضٍ عالٍ مني أنا شخصيًا باتخاذ ما تراه سليمًا بخصوص هذا الموضوع.

- سليمان... ثم صمت لحظة وأردف: أريد لهذا الموضوع أن ينتهي.

انصرفت وأنا أفكر.. حتى في الحلم خرافات وعفاريت ووالي وسلطنة...

عند الباب وجدت القوة بالفعل مجهّزة، وانطلقنا في طريقنا إلى منزل إبليس.. أعوذ بالله من هذا الاسم الشنيع.

❊ ❊ ❊

- نحن على مشارف منفلوط سليمان بك. قالها فارس طويل أسمر البشرة يمتطي فرسًا أسمر كالليل الحالك يقال له حسام، طبعًا الفارس وليس الفرس.

- هل تأمر سعادتكم بالمبيت هنا حتى الصباح أم نستكمل المسير؟

- أمرني جناب الوالي ألا أضع جنبي حتى نقضي في هذا الموضوع، فلنكمل المسير على بركة الله.

التفّ حسام حول فرسي بمهارة، ثم جاءني من الخلف واقترب مني، ووجدته يهمس في أذني: سيدي أريد أن أحدثك في أمرٍ مهم..

- خير يا حسام؟

- الرجال متعبون، والرحلة شاقة و...

قاطعته: وهل هذا هو الأمر المهم؟

نظر وأطال النظر في سنابك جوادي ثم قال: الرجال خائفون.

- خائفون؟

- نعم يا سيدي.

- ممَّ؟!

- أخشى أن بعض المعلومات قد تسربت من أحد الفرسان إلى عساكرهم، بالإضافة إلى أن بعض العسكر من أسيوط ويعلمون بموضوع تلك القرية.

- ماذا يعلمون عن أمر تلك القرية؟

- أنا شخصياً لا أدري -أردف حسام- ولكني سمعتهم يتحدثون أن كل من يتدخل تصيبه اللعنة أو يموت، ويؤكد الجندي عبد الكريم أن الموت هو الأرحم بكثير.

- فسّر يا حسام كفانا ألغازاً.

- باختصار شديد يا سيدي، هذه البلدة ملعونة، حتى من اسمها، فهم يزعمون أنها البلدة التي هبط إليها إبليس الملعون من السماء عندما عصى ربه!

- كفانا خرافات، ومن أين لأحد أن يعلم بمحل هبوط إبليس؟ وحتى لو كان فما الفارق؟ فإبليس وجنوده يسيرون بيننا ويجرون من بني آدم مجرى الدماء، أكلنا ملعونون؟!

- لا أدري يا سيدي، ولكنهم يقولون إن للبلدة سر عظيم، وهي تحفظ أسرارها بين جنباتها، وكل من حاول سبر الأغوار تعرض للأخطار.

- العقل يا حسام، الوهم من صنع الإنسان ليحتال به على نفسه أو على الآخرين.. أعتقد أنه بعد ما يناهز الخمسمائة عام من الآن سيكون هناك علم كبير يسمى علم النفس، وأعتقد أنه سوف يتعامل جيدًا مع موضوع الوهم هذا...

- ولكن... أسكتّه بإشارة من يدي أن كفى.. أكمل المسير.

- ولكن الرجال خائفون. تفوّه بها حسام.

امسكت بذراعه بقوة واقتربت من وجهه وقلت: الخوف يعني الجبن، وهو ليس من صفات جنود مولانا، من جَبُنَ فليُقتَل، انتهى الحوار...

صراحة تعجبت من هذا الحسم وهذه الردود المقنعة، فلم أعهد نفسي أبدًا بهذه القوة وبهذا الحزم.

- أبعث ببعض الجنود النادورجية لكي يخبروا عمدة هذه القرية بقرب وصولنا.

- تمام يا فندم. وانصرف حسام.

في دوار العمدة الذي لم يستطع الجلوس في حضرتنا، ومن المؤكد أن فقراته القطنية والعجزية قد أصابها غضروف مؤكد من كثرة الانحناءات، لدرجة أن الرجل لم يرفع ظهره إلا عندما عدلت قامته بيدي.

- قائد عسكري يمثل مولانا الوالي شرف ما بعده شرف لقريتنا الصغيرة.

أوامر سيادتكم.

أوامر معاليكم.

أحلام فخامتكم.

والحقيقة أنه لا طاقة لي بدور المسح هذا، ابتدرته بسؤالي المفاجئ: أين الفتاة؟

- أية فتاة؟ أجاب العمدة.

- الفتاة الملبوسة.

- سيدي -قال الرجل ضعيف البنية والشخصية- أريد أن أنفرد بفخامتكم.

أومأت برأسي أن نعم، فاقتادني لحجرة جانبية وأجلسني فيها وهو لا يتوقف عن الانحناء، ولما صرنا وحدنا تمامًا قال: يا سيدي إن هذه قرية صغيرة وأهلها فلاحون فقراء، وليس لنا في أمرنا شيء.

- ديباجة طويلة بلا هدف، ادخل في الموضوع دفعة واحدة.

- أنا أنصح معاليكم بالعدول عن هذا الموضوع، فإن الأمر جلل.

- هل تهددني يا هذا؟!

- حاشا لله. وسجد الرجل على حذائي يقبلها، فرفعته بيدي قائلا: ما الحكاية؟

سألته بتصميم من يريد ردًا.

- كل ما في الموضوع أني أخشى على معاليكم من شر هذا المكان اللعين.

- ولكني لا أخشى غير الله.

- ونعم بالله، ولكن سيادتكم تعلمون جيدًا أن في هذا الكون أشياء تُرِكت عمدًا بغير إجابة، والله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم. صدق الله العظيم. وهذا الشيء واصل السوء.

- ما بالكم يا قوم ترتجفون وترتعشون؟! ما الموضوع؟!

شرع العمدة يحكي بخوف وعلى مضض: الموضوع أن أهل هذه القرية يمثلون عائلة كبيرة متشعبة يرجع نسبها إلى محمد بن عبد الواحد المنفلوطي، يقال إن هذا الجد قد عقد عقدًا مع الشيطان، ونظير هذا العقد أمدّه الجن بجنود وخدم ومال وفير، في مقابل أن يهبه المنفلوطي قربانًا بشريًا كل عام من بنيه.

- أعوذ بالله.

- للأسف يا سيدي امتد هذا العهد لمدة عام، ولما اقترب موعد دفع الثمن فوجئ المنفلوطي أنه مضطر للتضحية بأحب أبنائه إليه وفاءً بعهده النجس، فامتنع عن تنفيذ العقد، وطبعًا العقد شريعة المتعاقدين، وقد وقع الشرط عليه، والشرط أصعب من العقد ذاته.

- وما هو هذا الشرط؟ تساءلت.

الشرط أن تصبح الفتاة البكرية الأولى لكل ذريته الذكور عروسًا لهذا الجني ينكحها وتصبح حِلا له في يوم زواجها، ومن يومها أصبح كل والد من أبناء أو أحفاد المنفلوطي ينذر ابنته الأولى وقفًا بلا زواج، بل وصل الأمر بالبعض لوأد بناتهم البكريات، وكم تمنوا لو لم يولدن من الأساس.

هززت رأسي وأنا لا أكاد أصدق ما تسمعه أذناي من كم الخرف.. تئدون بناتكم! كم هو مفترس مرض الضلالات!

والضلالات في علم النفس هي اعتقاد خاطئ ثابت لا يتزحزح عن إيمان عميق راسخ بذهن المريض، شرطًا ألا يشاركه فيه الآخرون، وسألت نفسي: هل يا ترى في حالة العمدة ينطبق التشخيص مع انتفاء الشرط بإيمان كل أهل قريته بهذا الاعتقاد؟ ولربما يصبح العمدة في نظر الطب النفسي غير مريض!

- يا ترى أهل القرية كلهم يشاركونك نفس المبدأ؟ سألته.

- حضرتكم هذه أمور لا تروى ولا يتم الحديث فيها، فمن يتحدث مثلي الآن يعرض نفسه للسخط.

- أي سخط أيها الرجل المخرف؟ أتخاف من سخط غير الله؟ والله أحق أن تخشى!

ارتعد الرجل لوقع كلماتي ونظر في الأرض وسالت الدموع من عينيه، فلم أشأ أن أضغط أكثر، كفاه كم الخوف والضعف الذي يعانيه.

- إذًا ما الجديد؟

- الجديد أن فتاة من أهل القرية تعلمت القرآن وحفظته، وتمردت على العهد.

تجاوزت وضغطت على أعصابي المسكينة وأطبقت فمي لأجعله يكمل روايته.

- شرع أجدادنا منذ مئات السنين، رفضت شرعنا وأصرت على تحدي الناكح، وجاراها شاب من أبناء عمومتها كنا نظنه من العاقلين.

قررا الزواج، ومع رفض الأهل الشديد تزوجت هذه البكرية من ابن عمها غصباً عن أهليهما، ولكن هيهات، فالحساب لم يكن من أهل القرية ولا من أهليهما، ولكنه سخط المارد الذي طالب بزوجته.

للمرة الألف كبحت جماح غضبي وضغطت على أسناني حتى كادت تتساقط لكي يكمل.

- ثم ماذا حدث؟

- حدث أن استولى عليها زوجها من بني الجن، وقتل ابن عمها شر قتلة، وأصبحت عبرة.

- وأين هي الآن؟

- بعد أن مسّها ظهر شره واستفحل فحبسناها في التخشيبة.

- إذًا هلمّ بنا.

- أريد أن أحذر معاليك أن الظهور عليها خطر، فهو يرفض أن يرى امرأته أي إنسي، ومن رآها أصابه البلاء.

- أي بلاء؟ وكيف تتعاملون معها؟

- نحن نحبسها في التخشيبة بدون طعام أو شراب، بصراحة نحن نتركها لكي تموت.

- أيها المتخلف.. أتقتل نفسًا زكية بغير حق؟! لقد جئت شيئا إمرا.

- أقسم لك يا سليمان بك إني ما فعلته عن أمري.. فالخلاص الوحيد هو قتلها.

- امضِ أمامي.. أرني هذه التخشيبة.

لم يدر الرجل كيف يثنيني عما أنا ماضٍ إليه.

- سيادتكم عالي المكانة رفيع المنزلة، وأنا لا أبغي أن يصيبكم شرٌ قط.

لقد حذرت قائد عسكر الجنوب، وقد كان رجلا عظيمًا بحق، ولكن اعذرني في الكلمة، كان في نفس اندفاع سيادتكم.. استهان بتحذيري، حتى جرى له ما جرى.

- ماذا حدث له؟

- لقد تحدى الناظر، فقتله.

- وكيف قتله؟

- يا سيدي، لقد سمعت أنهم لم يعثروا لجثته على أثر، لقد انفجرت إلى فتات، أو أن الشيطان قد اصطحبه معه لغيابات الجحيم.

- ما هذا التخريف؟ أرى أن الجهل قد أوصلكم إلى حاله ميؤوس منها، وترككم فريسة ولقمة سائغة للدجل والخرافات تمتص دماءكم وعقولكم الخاوية.. هيا امضِ أمامي للتخشيبة.

- والله يا سيدي لا يسعني أمام إصراركم وأنا عبد المأمور إلا أن أحذركم للمرة الأخيرة، وأن أستحلفكم بكل ما هو عزيز عليكم أنت تنزل عن هذا الرأي.

صراحة وبالرغم من إصراري الملحوظ، فإنني أحسست تلك الرجفة أسفل ظهري للمرة الثانية، ولكن الفضول وأمر الوالي قتلا آلاف القطط من قبل.

انحنى الرجل أكثر وقادني أمامه مضطراً، كان مبنى المخفر ملاصقًا لدوار العمدة، وكان على الباب أربعة خفراء من الرجال الأشداء، يظهر عليهم الرعب والإعياء، أدركني حسام مع فرقة من جنوده، ومشينا حتى اقتربنا من باب التخشيبة،

نظر الخفراء للعمدة بهلع شديد، ثم أداروا نظرهم لبعضهم البعض، ولكن لم يجسر أحدهم على الكلام.

- افتح الباب يا سليم. قالها العمدة في انكسار وخوف...

لم يتحرك سليم قيد أنملة، بل أخرج من جلبابه سلسلة مفاتيح عظيمة ومدّ بها يده للعمدة، قال حسام متعجباً: ماذا يحدث يا سيدي؟!

أجبته: إنها الخرافة التي أصابت جنودك.

- ولكن يا سيدي... نظرت إليه أن اصمت.

أخذ العمدة المفتاح واقترب من الباب، فأفسح له ولي الخفر طريقا، تأملت الباب الخشبي العتيق والمزلاج الخشبي العظيم الذي يتدلى منه قفل أسود معدني ضخم.

فتح العمدة الباب واقترب من أذني وهمس: أرجوك يا سيدي.. أنت لسّاك شباب، والله عمره ما ترك حدا يناظرها.

تنحى جانبًا، ونظرت في عينيه مباشرة، نظرة معناها أني ماضٍ فيما جئت من أجله.

لحق بي حسام ولكني منعته من الدخول، رفض حسام في البداية دخولي وحدي، ولكن مع إصراري على بقائه بالخارج امتثل لأمري، دفع العمدة الباب ببطء محدثا صوتا يدرّس في

أفلام رعب السبعينيات، فقط فتحة صغيرة لأعبر منها، وأنا أخطو أول خطوة للغرفة أمسك العمدة بكتفي قائلا: لا تنظر في عينيها...

حقيقة لقد تم شحني أنا شخصياً بكمّ كبير من الضلالات والأوهام، حتى أصبح ذهني فريسة لأي عفريت صغير.

حملت الموقد في يدي اليسرى، ووضعت قدمي اليمنى على الأرض الجافة داخل الحجرة.. كانت الحجرة كبيرة مربعة الأركان تقريبًا، تفوح منها رائحة كريهة، خالية من النوافذ، وعلى ضوء اللهب المتراقص من المصباح وجدت زنزانة خشبية أو هي كالقفص إن صح التعبير، تشبه إلى حد كبير أقفاص الحيوانات في حدائق الحيوان العصرية، مع الفارق في احترام الحيوان في تلك الحدائق، واحتقار الإنسان في هذه الغرفة العطنة.

في البداية لم أتبين شيئا داخل القفص، ولكن مع التدقيق واعتيادي الرؤية على ضوء المصباح القديم، لمحت جسد إنسان داخل القفص، جسد متكوم على نفسه في أقصى الركن الأيمن للقفص، ميزت جلبابًا أسود اللون وشعراً طويلا لم يمشط منذ زمن.

كان هذا هو كل ما استطعت تبينه، وفجأة صُفعت ضلفة الباب بعنف بفعل الهواء، فرفعت الفتاة أو الكائن رأسها.

وياالهول ما رأيت!... ملاك هو ما وقعت عيني عليه، جسد نحيل، بيضاء، متوسطة الطول تقريبًا، يعلو وجهها الملائكي اسمرار من أثر المعاناة والتلوث المحيط بها، اقتربت بالمصباح أكثر بعدما بث منظرها الرقيق الضعيف الشفقة بل والأمان في نفسي، فلمحت عينين من أجمل ما رأيت، ولكنهما مخضبتان بالدموع التي بللت خديها وشعرها بل وجلبابها، نظرت إليّ نظرة ملؤها حزن وألم واستعطاف، فلمست في نفسي حنينا إلى أن أضمها لصدري... من ذا الذي يفعل ذلك بذلك الملاك البريء؟! وكيف لتلك الملاك أن تأتي بما يروونه عنها من بشاعات؟

- ما اسمك؟! كان هذا أول كلامي.

تحركت شفتاها الجافتان من العطش ببطء، ولكني لم أتبين كلامًا واضحًا، اقتربت أكثر من القفص، تمتمت شفتاها: مممريم.

- نعم اسمك مريم... ماذا حدث يا مريم؟!

تمتمت شفتاها الجافتان كأوراق الخريف: م اااا ء.

فتنبهت فجأة، وعدت أدراجي وفتحت الباب، وأمرت العمدة بإحضار الماء.

مد يده بالقلة من وراء الباب، ومددت يدي لأخذها، ولكنه لم يفلتها، بل نظر في عيني مباشرة وقال: الحذر يا سيدي.. "السم في العسل". شددت قلة الماء من يده بعنف، ودخلت الحجرة ثانية واقتربت من القفص، ومع اقترابي فكرت في كلامه "السم في العسل"، أحيانا قد تأتي الحكمة من أفواه المجانين، السم في العسل كناية عن وجود الشر الذي يغلف برداء جميل من الخير والطيبة، حتى تنخدع فيه، ودائمًا ما يكتشف المرء الخدعة، ولكن بعد فوات الأوان.. ورغمًا عني ابتسمت.

وضعت القلة على الأرض أمامها، فقد كان الخشب يسمح بمرور ذراع تقريبًا من التخشيبة.. انقضت الفتاة على الماء بنهم، فقلت لها: خففي عليك يا مريم، ففوجئت بها ترفع إليّ عينيها، وإذا بسواد عينيها قد اختفى وحل محله بياض، قرّبت المصباح بحذر من القفص لأتأكد، وفي تلك اللحظة قفزت الفتاة فجأة بقوة ألف رجل لتتعلق بالقفص وتواجهني، رأيت الآن بياض عينيها واضحًا وهي تحرك رأسها بحركات عنيفة سريعة أشبه بحيوان حبيس، وأطلقت خوارًا، لا أدري أأحلم وأنا في الحلم؟!

أين ذهبت الفتاة الرقيقة الضعيفة؟

وكيف حل محلها هذا الشيء؟!

على ضوء المصباح رأيتها تتشمم الهواء وتحرك رأسها حركات سريعة خاطفة، حقيقة لقد بدأ الرعب يدب في أوصالي، وأنا القائد العسكري الذي لا يُشق له غبار، فكيف بأهل هذه القرية المساكين الجهلة...

- من أنت؟ سألتها.

نزلت عن القفص بقفزة واحدة وأدارت لي ظهرها، ثم أطلقت ضحكة مجلجلة كأن مصدرها الجحيم.

تراجعت خطوة للخلف وأعدت عليها السؤال وأنا أتحسس سيفي لأستمد منه بعض الثقة.

- إحنا اتشرفنا قبل كده... أنت بتنسى بسرعة أوي يا دكتور.....

كان ردها مزلزلًا بل وصاعقا، أولا فالصوت لم يكن صوت الفتاة، ولكن صوت رجولي قوي بأحبال صوتية عريضة تشم فيه الكثير من هرمون التستوستيرون... ثانيا "إحنا اتشرفنا قبل كده يا دكتور".

إذًا أنا باقول أصحى من النوم بسرعة عشان الوضع كدة أصبح خطر جدًا على قلبي وعقلي.

وبصفتي طبيب نفسي فأنا أعلم جيدًا ألاعيب العقل الباطن، وتنفيسه في الأحلام عن الرغبات و الأفكار المكبوتة، معجزة من معجزات الخالق سبحانه، لكن قلبي لا يحتمل هذا العقل الرهيب وتدبيره المحكم، لقد ولّف العقل حلمًا، وجاء في الحلم بالعفريت الذي تحاول الهروب منه في الواقع، يعني تتجنبني في الواقع وتقول خرافة وضلالات، آتيك في الحلم من صنع عقلك الطبيبي الماهر، أردت بقوة أن أستيقظ من هذا الحلم لأن الموضوع في الواقع قد زاد عن حده كثيرًا، ولكن المفاجأة الأكثر سخرية ورعبًا أن الفتاة باغتتني قائلة: "مش هتقدر تهرب".

إذًا هي تعلم بماذا تفكر!

- أهرب من إيه؟ سألتها...

- من الحلم يا أمّور.

الله يخرب بيت هذا الدماغ الذي ولّف كل هذا، تحلم الناس بعروس، بأموال، سيارة، فيلا. أما أنا فأحلم بشيطان، وبعد تمحيص طويل في خلايا عقلي ويأسي الشديد من الاستيقاظ

قررت أن أتماشي في هذا الحلم ولكن بشروطي، وبعقل الطبيب النفسي وليس القائد سليمان.

- يعني أنت حضرتك مين؟
- ما أنت عارف يا دكتور، ولا أقول لك يا سليمان بيه؟
- انتقم الله منك. قلتها في نفسي.
- جري إيه يا طه؟ أنت فاهم كل حاجة.
- أنا ولا فاهم أي حاجة.
- فكر كويس وأنت تفهم.
- أفهم إنك عفريت مش كده؟!

ضحك الشيء ضحكة مدوّية حتى برزت أسنان بيضاء تلمع على لهب المصباح.

- ده مش مرض يا دكتور من اللي عندك في الكتب، دا عهد ومكتوب.
- ماشي يا سيدي، قولي بقي أنت عايز مني إيه؟
- أنا اللي عايز؟! أنت اللي عايز.
- أنا؟! سألته مستنكرًا.
- يا راجل دا أنا شايفك هتاكلها بعينيك.
- مريم؟ سألته باستغراب.

- لا طبعًا... سارة يا دكتور...
- آه من هذه الدماغ.... أنا بكلمك دلوقتي عن مريم.
- وهي تفرق يا دكتور؟
- آه. الكلام ده كبير.
- أهو أنت كدة ابتديت تفهمني.
أنا رجل لا أعترف إلا بلغة العقل والعلم والمنطق، صحيح أن ما يحدث أمامي الآن يجافي العقل والمنطق، ولكن من الأكيد أن له تفسيره العلمي المقبول...
فاجأني بسؤاله: هو يعني العقل والمنطق بتوعك يلغوني من الكون يا دكتور؟ أنا موجود زيك بالضبط، لكن أنا أقوي منك بكتير.
- بل أنت الآن خرافة من تأليف عقلي الباطن في حلم سلاطيني غريب.
- أنت مصدق نفسك؟ هو اللي في حلم بيبقى عارف إنه بيحلم يا دكتور؟
صراحة أحسست تلك الرجفة تسري أسفل ظهري من وقع كلماتها أو كلماته، والحقيقة أن الفاصل بين الوهم والحقيقة خيط بسيط، ولكنه يظل موجودًا لكي يستطيع الإنسان إدراك حقيقة

وجوده الفعلي، وهذا الخيط البسيط قد يضيع عند الإصابة بأمراض الدماغ، فلا يعود المريض يميز بين الوهم والحقيقة.

أفقت من تساؤلاتي على قوله: يعني أنت شايفني مرض؟

- لا أنت مجرد حلم.

- طب وسارة؟ سألني.

- سارة دي مرض.

- طب وإزاي المرض يجيلك في الحلم؟

- أعمل إيه في عقلي الباطن يا سيدي؟ أجبته.

انقضّ على القفص بقوة دفعة واحدة حتى كاد القفص أن يسقط من قوة اندفاعه، تراجعت لا إراديًا حتى التصقت بالجدار المقابل.

- أنت خايف يا دكتور؟ سأل المسخ.

- أكيد، الخوف صفة بشرية، لكني لا أخاف غير الله.

- أنت فاكر القفص ده هيمنعني عنك؟

واختفت الفتاة دفعة واحدة من القفص، فركت عيني بيدي الخاوية واستللت سيفي من جرابه، لحظات هي كالدهر وأنا أنظر في الاتجاهات الثلاثة وظهري يستند إلى الحائط، لا وجود لها تمامًا بالغرفة، عقلي أصبح مجهدًا وتفكيري مشوشًا، يا رباه! لكم

أحتاج لبعض الراحة من هذا الحلم! وفجأة.. يهوي شيء من سقف الغرفة ليسقط أمامي الشيطان منتصباً، اقترب مني يتشممني وأنا أتراجع إلى الخلف علّ الحائط ينشق ويبلعني، حاولت رفع يدي بالسلاح ولكنها رفضت إشاراتها العصبية، كأنها مكبلة بيد غير مرئية، اقترب بفمه الكريه من أذني وهمس بفحيح: ابعد عن سارة.

أضاءت الدنيا مرة واحدة لأجد نفسي بسريري، ونبضات قلبي تلهث ورائي تريد أن تقتلني، نظرت أمامي لأرى غرفة نومي كما تركتها في أمسي، والتلفزيون صورة بلا صوت.

ربع ساعة كاملة أخذت مني حتى أستطيع أن أفيق، وياله من كابوس!

وأخيرًا استطعت النزول من السرير وكأني طفل يتعلم المشي، اتجهت إلى المطبخ، صنعت كوبًا كبيرًا من القهوة لعلي أفيق مما رأيت، قرأت المعوذتين وكثيرًا من بسم الله الرحمن الرحيم، ونظرت إلى الساعة بجانبي، كانت تشير إلى الرابعة صباحًا، جلست في السرير وانتبهت حواسي كلها، وطار النوم ومفعول نصف القرص إياه.

* * *

أسبوعان مضيا من يوم الحلم العجيب، وبدأت الحكاية تنام وبدأت أتناسى الموضوع، حتى جاء اليوم الذي دخلت عليّ أم محمد بغرفة الكشف بالعيادة بالملف؛ الاسم: سارة. السن ٢٤ سنة...

وكأنني أفقت من حلم جميل، واستعاد ذهني اللقاء الماضي، بل والحلم العجيب في لحظة واحدة، كثيرًا ما يتخيل الإنسان أنه استطاع النسيان أو أوهم نفسه به، وقد يمر الوقت أيامًا بل أعوامًا، وإذا به يتأكد أن للعقل البشري أسراره المكنونة، فتلافيفه الرمادية والبيضاء لا يعلم قدرتها الحقيقية إلا من خلقها وحده.

دخلت سارة بيضاء جميلة كما كانت، ولكن شيئًا ما في عينيها قد تغير، إنه الحزن، ميزت الحزن مع بعض الارتباك، فالزيارة الماضية لم تكن موفقه بحق.

مدت يدها بالسلام، فابتسمت واحتفظت بكفها في راحتي لثوان أطوال من المعتاد كمحاولة لبث بعض الطمأنينة في نفسها القلقة، وكنت هذه المرة قد أعددت جيوشي مكتملة متمثلة في مراجعة قوية لباب السكيزوفرينيا في أم الكتب، بل وحرصت على حضور المحاضرات من أجل الدكتوراة، بالإضافة إلى

الاستعداد الذهني لكل ألاعيب العقل البشري، يعني باختصار لن تستطيعي خداعي مرة أخرى، تقلبين صوتك رجلا، تحمّرين عينيكِ، توقفين شعرك، أو حتى لو برزت لكِ أنياب، فأنا هذه المرة جاهز.

- أهلا يا سارة.... ابتدرت الحوار.

- أهلا بحضرتك دكتور طه.

- أنا تخيلت إنك ممكن متجيش تاني.

- ليه يا دكتور؟

- لأني رفضت مجاراتك في الموضوع إياه.

- دكتور طه.. أنا مش عارفة بجد أنا ليه واثقة في حضرتك وحاسّة إن مافيش حد هيقدر يساعدني غيرك.

- دي بداية ممتازة.. عايزك ترجعي بالذاكرة ورا شوية قبل ظهور الأعراض العجيبة، مفيش حاجة لفتت انتباهك؟ أي حاجة اتغيرت في أسلوب حياتك؛ أكل، شرب، علاج، علاقة عاطفية..

هنا احمرّت بشرة الفتاة بعض الشيء، ورفعت خصلة من شعرها كانت قد سقطت من قبل، فتأكدت من لغة الجسد أن للسؤال الأخير إجابة بالإيجاب، فقررت أن أضغط أكثر.

- يا ترى كان زميلك في الجامعة ولا جارك ولا..........؟

قاطعتني: اسمه أحمد.. أعرفه من أيام ثانوي، كان زميلي في الدروس، ولكن علاقتنا بدأت في أول سنة بالكلية..

أحمد كان متفوقا عني بكثير، فدخل كلية الصيدلة، بينما التحقت أنا بكلية الآداب.. وبدأت زياراته لكليتنا تزداد، وتقربه الغريب من أصدقائه الشباب في كليتي، ونظراته وتودده الملحوظ في جلساتنا المشتركة، ثم بدأ يحدثني عن إعجابه، اهتمامه بي، ثم... حضرتك عارف بقى يا دكتور.

سألتها: هل أحببتِه؟

أومأت برأسها إيجابا وخجلا.

- وبعدين؟

- وبعدين استمرت علاقتنا وبدأت الدنيا تزهر، وأصبحت الحياة أحلى بكثير.

سألتها: وكنتِ متأكدة من حبه ليكي؟

- ده شيء أكيد، كل حاجة فيه كانت بتقول بحبك، كلامه، عينيه، لمساته....

قاطعتها: إذًا كانت هناك لمسات!

اضطربت الفتاة في خجل وتلعثمت واحمرّت وهي تقول: زي أي قصة حب يا دكتور.

- واد ايه استمرت قصة الحب دي؟

- ثلاث سنوات، كانوا أحلى سنين عمري.

- وبعدين إيه اللي حصل؟

- اللي حصل إنه طلع ندل.

- ندل!

- أيوه، أول ما.......

وسكتت ولم تكمل، فاستوعبت أن الأمر كان فيه أكثر بكثير من مجرد لمسات.

- والحب؟! سألتها.

- واضح أن الحب وهم كبير من تخيلنا عشان نقدر نتحمل الحياة بضغوطها ومشاكلها، واضح أنه نوع من أنواع الأمراض النفسية ولازم يتعمل عليه أبحاث وتجارب عشان يتحط في المكان المضبوط كمرض نفسي...

- للدرجة دي يا سارة؟ الحب عمره ما كان ولا ينفع يكون مرض، وأنا باتكلم عن الحب الحقيقي، الحب بدون رغبات أو منفعة، ولو مش عارفة تتخيليه ارجعي لحب والدتك ليكي وحبك

لها، ده حب منزّه من كل الاحتياجات الدنيوية، حب بدون مقابل.

- مين اللي قال الكلام ده؟ حتى حب الأب أو الأم لأبنائهم لا بُد له من مقابل، جرّب كده تتابع ابن عاق مع والده، الأب بيتحمل مرة اتنين، عشرة، لكن في الآخر بيدعي على ابنه ويلفظه وأحيانا يتمنى حتى إنه مايشوفوش، الحب لازم يكون له تمن حتى لو التمن ده هو تبادل الحب، لكن حب بدون مقابل، أفلاطوني يعني، ده الناس بتضحك بيه على بعضها زي ما بقول لحضرتك، عشان يقدروا يتحملوا بعض ويتحملوا حياتهم.

أنا أعلم بالطبع أنك خريجة آداب علم نفس، لكني لم أعتقد أبدًا أن لك وجهات نظر فلسفية سوداوية في الحياة بهذا الشكل العنيف.

- نرجع بقى لموضوع أحمد، إيه اللي خلاه يبيع الحب؟

- أول ما بدأت الأعراض العجيبة تظهر علي، لم يتحمل، وهزم عند أول معركة حقيقية.

- مش فاهم، ممكن توضحي أكثر؟

- يعني قال لي إن اللي بيحصلي ده أكبر منه بكثير، وإنه هدده يموته لو ما بعدش عني..

- مين اللي هدده؟!

- اللي حضرتك قابلته!

- تاني يا سارة؟ ما إحنا كنا كويسين.

- يا دكتور حضرتك مش مصدقني، لكن أنا حياتي جحيم بسبب الموضوع ده، أنا عايشة فيه صبح وليل أربعة وعشرون ساعة، ساعات أيام تمر عليّ من غير ما أشعر بيها، رعب في البيت، وفي عيون كل اللي يعرفني، بعدت عن كل أصدقائي ومعارفي، والكل عارف الموضوع، لدرجة إني أصبحت أمشي في الشارع أحس إن كل الناس عارفى الموضوع.

- طب خلينا في أحمد..

صدمتني ضحكة عالية شرسة، انطلقت من فم الفتاة الرقيقة التي تجلس أمامي، نظرت إليها بشك، فوجدت سحنتها قد انقلبت وظهر عليها أعراض الخرف إياه، مع اتساع ملحوظ في حدقة العين، وثقة زائدة مع وضع رجولي متباعد للساقين.

عدت بظهري لمسند مقعدي المفتخر، ووضعت إحدى ساقيّ فوق الأخرى، في وضع يضفي ثقة زائدة بالنفس، وكأني كنت منتظراً تلك اللحظة، ولكن الصراحة لمست تلك الرعشة الخفيفة أسفل ظهري.

- شكلك عايز تتأزى يا دكتور. نطقها لسان سارة بالصوت الرجولي.

- ومين إن شاء الله اللي هيأزيني؟ قررت أن أثق برأسي وبالكتب، وأن أتعامل مع مرضها النفسي كطبيب خبير محنك، وهاجمتها قائلا: أنت سارة قدامي مفيش عفريت ولا جني ولا هبل.

- طب ومريم؟

يا نهار أسود، موضوع الجامعة ومعرفتها به ابتلعته، لكن موضوع الحلم ومريم كيف يتأتي لها معرفته؟ وأنا لم أقصصه لأحد حتى لنفسي، على العكس لقد حاولت قدر المستطاع أن أنساه، أعتقد هكذا أن الموضوع تعقد، بل وبدأت قطرات عرق صغيرة تتكون فوق جبهتي بالرغم من برد يناير، ورغما عني أنزلت ساقي عن الأخرى.. الحقيقة أن سؤالها المباغت عن الحلم الذي لم أصرّح به لأحد شل تفكيري تمامًا.

- مريم مين؟ سألتها أو سألته.

- مريم بتاعة منزل إبليس يا دكتور. قالتها بتهكم.

وكانت الإجابة قاتلة لعقلي ومنطقي، بل ولقواعد العلم، وأصبح المخرج الوحيد للهرب من اقتناعي بالاستحواذ الشيطاني وهذا

التخريف، هو كوني أنا شخصياً مصاباً بالضلالات، والحقيقة الأكثر إيلامًا هي أننا لسنا في الحلم هذه المرة، بل في العيادة وداخل غرفة الكشف.

لحظات مضت وهي تبتسم ابتسامة التشفي، خروف ذبحته بنصل بارد وتتابع موته البطيء، بعد إجابته الأخيرة كانت آخر حصوني العقلية قد ألقى جنودها السلاح واستسلم عقلي تمامًا... وقد كان يعلم!

- لا إله إلا الله... صدرت مني لا إراديًا..

استكمل القضاء عليّ قائلا: يعني بعد الخرف اللي عمال تدرسه السنين دي ولسة متمسك بالوهم، إنه موجود وهينقذك وهتروح الجنة، عيب عليك يا دكتور يا متعلم.

- العلم أبلغ دليل على وجود الخالق يا جاهل.

- طب العلم بتاعك هو اللي بيعالج المرضي ولا ربك هو اللي يخففهم؟ لو كان ربك اللي بيعالجهم يبقى عملك مالوش لزوم يا دكتور، وإن كان علمك يبقى مفيش. هههههه!

ضحكات جهنمية تصدر من الكائن الكريه.

- يعني أنت عايزني والعياذ بالله أكفر؟!

- أنا مش عايز حاجة منك، غير إنك تبعد عنها، وإلا...

- بتهددني، طيب أنا هاتماشى معاك إنك مش سارة... وإنك عفريت كافر، طيب أنا مفيش بيني وبينك أي عداوة....

قاطعني بسرعة: أزاي ده؟ دا أنت عدوي من بداية الكون.

- هو أنا أعرف سيادتك؟! قلتها باستهتار.

- إحنا اتقابلنا كتير، بس أنتم بتنسوا ومابتشفوش، لأن نظركم ضعيف..

- أنا مش هقولك إن الوضع غريب وإن اللي بيحصل ده لا يتماشى مع قواعد العقل والمنطق، ولكن فليكن، هتماشى معاك في....

قاطعني بعنف: تتماشى معايا؟! أنتم دايمًا كدة، تنكروا مع إن الحقيقة بتكون قدامكم طول الوقت واضحة وضوح الشمس، لكن مكابرتكم وضعفكم بيخلوا نظركم ضعيف وقدراتكم محدودة.

هززت رأسي يمينا وشمالا ببطء كأني أنفض عنها ما لا أستطيع تقبله، بالرغم من البراهين القوية التي يلقيها عليّ هذا الشيء المؤذي نفسيا... أنت فين يا د.عبد المطلب الآن؟ لو كنت حاضرًا معي هذا الموقف لا شك أنك كنت ستعترف وتغير رأيك حتمًا.

نفضت عني الاستطراد في أفكاري وسألتها أو سألته:

- سؤالي الآن، من أنت؟ وليه بتعمل كدة في سارة؟

تكلم من مقعد المنتصر: كدة نقدر نتكلم، بس بشروطي.

- بشروطك؟

- هو في حاجة عندكم ببلاش يا دكتور؟

- مش فاهم؟!

- يعني حاجة قدام حاجة، وأنا اللي هبتدي،

اسمي لا يعني إليك أي شيء، ولكن أصلي أنضف من أصلك بكتير.

- اخرس.

- مش هتجادل معاك. قالها ضاحكًا.

- سارة دي ملكي، وكله مكتوب.

- مكتوب فين بقى؟

- مكتوب بالدم، والعهد وعد... دورك جه يا دكتور.

- أنت لم تجاوبني.

- كله بثمنه، دورك الآن.

- عايز تعرف إيه؟

- عاجباك، جميلة مش كدة؟ استكمل كلامه: صدرها، رجليها، عينيك..

- أنت عايز إيه؟

- عايزك تصارحني، نفسك فيها، مش كدة؟

- لأ...

- كذاب... أنا شايفك هتتجنن عليها.. حاسس بلمسة إيدك لإيديها...

قاطعته بسؤالي: سارة ومريم إيه العلاقة بينهم؟!

- الاثنان نسوان.. انفجر ضاحكًا بجنون.

- يا سلام!

- أول ما تصير مَرَة تبقى من نصيبي.

- بس ده ضد الشرع وضد المنطق!

- أي شرع وأي منطق؟

- شرع الله ومنطق البني آدمين.

قاطعني: شرعكم ومنطقكم دول يمشوا عليك أنت مش عليّ أنا.

نهرته قائلا: شرع ربنا يمشي على أي مخلوق.

- أنا عايش من آلاف السنين... ماشفتوش.

- أستغفر الله العظيم.

ضحك حتى سقط على الأرض، من ارتجاج جسدها الصغير، تساءلت للحظات كيف لجسد سارة الصغير أن يتحمل هذا المخلوق الكبير الكريه.

- دورك جه يا دكتور.

- أنا بقى مش هسيبها إلا لما تخف من الوهم بتاعك ده.

- لسه برده شايف إنه وهم، عمومًا أنا ما يفرقش معايا إيمانك بوجودي من عدمه لأني موجود..

- في حاجات كتير بتمنع تداخل العوالم، يعني عالم الإنسان منفصل تمامًا عن الجن.

- وعرفت منين إني أنا من الجن؟! وكمان في حاجات كتير موجودة في الكون أنت ماتسمعش عنها ولا تعرف عنها حاجة يا دكتور.. الخلاصة سارة بتاعتي.. ولا علمك ولا كتبك ولا عقلك ولا حتى دينك هايخلصها مني.. ولو اتحدتني أنت الخسران.. كثير غيرك حاولوا لكن العهد أقوى بكثير.

- طيب خليني أتماشى معاك...

- برده تاني..

- إيه دخل سارة بالموضوع؟

- سارة من الأحفاد، يعني يسري عليها العهد، أول ما يحصل المراد تصبح ملكي وأنت راجل ذكي وأعتقد إنك بدأت تفهم يا دكتور.

- وهو يعني الجد لما يقطع عهد، العهد يسري على أولاده ليه؟! ربنا بيقول: ولا تزر وازرة وزر أخرى، يعني كل واحد يحكم على نفسه، لكن يحكم على عياله وأحفاده، ليه؟!

- مش قلت لك الأحكام دي تمشي عليكم أنتم عشان ضعفا، متمشيش علي، إحنا عندنا العهد واجب النفاذ حتى آخر الدهر، وسارة من نصيبي وعجبتني وملكتها.. وأنت يا طه لا ليك في الثور ولا في الطحين زي ما بتقولوا، نخليك في حالك، وابعد عنها.

- انا بس في حاجة محيراني؛ أنت بقي إيه اللي جابرك على تخويفي وتحذيري، طالما أنت جامد قوي كدة، يعني أساعدها أو لأ مش هيفرق معاك.

سكتت لحظات ثم....

لمحت نظرة السخرية والتهكم في ملامح الفتاة، وخرجت الكلمات من فمه الكريه قاسية: لو اتدخلت تاني تموت... ابعد عنها نهائي.. وإلا نهايتك مش هتكون أفضل من قائد عسكر الجنوب..

- هو أنت ليك دخل بالموضوع القديم؟

- أنا القديم والجديد، أنا عمري آلاف السنين مما تعدون، يعني أنا في مقام جدك خوفو... مفيش حد قدر يتحداني على مر العصور.. أنا أقوى بكتيييييير مما تتخيل.... ابعد أحسن لك يا دكتور وإلا مش هيسعدك الحظ وأحذرك تاني، المرة دي ممكن تبقي الأخيرة.

- طيب ما تنفذ من غير ما تهدد!

- جايز إني معجب بيك، جايز كنت محتاج أتكلم مع طبيب نفساني.. ضحك بجنون.

وفجأة أحسست بالكرسي المفتخر إياه يهتز بعنف تحت مني، وفوجئت بالأشياء حولي تتغير، وإذا بي مسجي على الأرض، نظرت لأعلى لأرى على ضوء المشاعل أشخاصًا ملابسهم من عصر سحيق، رأيت فيهم العمدة (عمدة منزل إبليس) والقائد حسام:

- سلامتك سليمان بك. قلت: أين أنا؟ وماذا جرى؟

أجاب حسام: لقد صرخت بقوة فاضطررنا لفتح الباب ووجدناك ملقى على الأرض أمام التخشيبة، فأخرجناك إلى هنا.

- طيب ومريم، البنت الملبوسة؟

- ما زالت نائمة بالقفص لم تصحُ منذ دخولنا والخروج.

العمدة بأسى: حزين على شبابك يا سليمان بك، هل تحدثت معه؟

- كيف يتحدث معها وقد كانت نائمة، أردف حسام.

نظرت إلى الاثنين، ثم أمسكت بتلابيب العمدة وجررته من ملابسه حتى كاد أن يسقط على الأرض وصرخت فيه: أنا عايز أفهم، في إيه؟

- يا سيدي، عهد نجس من رجل مجرم، كلنا بندفع ثمنه.

- طيب وذنبها إيه المسكينة؟

- ده وعد ومكتوب لازم تتزوجه أو تموت، ومفيش فايدة.... مفيش.

- أكيد في تصرف.

أطرق العمدة يفكر، فأحسست في تفكيره ببصيص أمل، فضغطت عليه أكثر، فقال: لا يوجد حل.

قلت له: إلا؟

قال: هناك خرافات تروى، ولكن لا.. لا أعتقد.

- أي شيء، أجب بسرعة. اهتز الرجل الضئيل من وقع كلماتي..

- كنت أقول -متلعثمًا- الشيخ رضوان. تفوّه بالاسم وصمت.

استحلفته أن يكمل: من هو الشيخ رضوان؟

قال: هناك خرافات تروى عن شيخ قوي عالم ببواطن هذه الأمور العلوية والسفلية.

- ولماذا لم تلجأوا إليه؟!

- لأن الوصول إليه أصعب من المصاب ذاته، فهو ليس بالإمكان إيجاده، ولكنه هو الذي يأتيك متى شاء.

- أمركم عجيب!

تركني العمدة مع حسام بعد أن أمر لنا بالطعام والشراب.

* * *

- هل تحدثت معه حقا يا سيدي؟ ابتدرني حسام.

- مع من؟

- الجني. أجاب حسام.

- أنا لا أصدق هذه الخرافات.

- الجن ليس خرافة يا سليمان بك، الجن تم ذكره في القرآن، يقول تعالى: إنهم يرونكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم.

- أنا أومن تمامًا بوجود الجن يا حسام مصداقا لقول الله تعالى، ولكني لا أصدق في أمور اللبس تلك فهي بالنسبة لي أوهام،

والتداخل بين عالمين مختلفين في كل شيء ليس واردًا في قاموسي، يقول الله تعالى: "إن كيد الشيطان كان ضعيفًا". صدق الله العظيم. فهو لا يملك التأثير على بني آدم.

- اسمح لي معاليكم، كلامك خطأ، فإن الله تعالى قال: "إنه كان رجال من الناس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا"، ومعنى الآية صريح؛ أنه كان بالإمكان أن يستعيذ رجال الناس بالجن، وبالإمكان أيضًا أن يثقل رجال الجن على الإنس، أي أن التداخل بين العالمين وارد وليس مستحيلا...

كنت بحكم خبرتي في مجال الطب النفسي وبحكم كوني مسلمًا وأحسبني على قدر كبير من الالتزام أعلم علم اليقين بوجود كائنات خلقها الله من مكونات مختلفة عن البشر، وقد قرأت الكثير وخرجت بنتيجة قد أراحتني نسبيًا في هذا الشأن، أن كل نوع من المخلوقات قد خلقه الله في بُعد أو ذبذبة مختلفة، فلو اتفقنا على أن الماديات البشرية كلها لها طول موجي وذبذبة خاصة، فهذا لا ينفي وجود أطوال موجية وذبذبات لا نستطيع إدراكها بالحواس المادية، ولا يوجد دليل أوقع من أن أعيننا لا ترى من الضوء إلا ما يقع في نطاق محدد من الذبذبات، ولا تدرك ما دونه أو فوقه، فنحن لا نرى ما فوق الطيف البنفسجي

ولا ما تحت الطيف الأحمر.. ولكننا نعلم جيدًا بوجودهما علم اليقين، ولو تسنى للعلم اكتشاف أجهزة ذات قدرة حساسة لتلك الترددات لاستطعنا الاستدلال البين على وجود تلك الكائنات، ولربما تمكنّا أيضًا من رؤيتها، كما استطعنا رؤية الأشعة الفوق بنفسجية بل وإنتاجها.. والله سبحانه وتعالى يقول: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم".. أي أنهم قادرون بالفعل على رؤيتنا، وبالفعل إن استطاعوا ربما أن يخفضوا أو يرفعوا من ذبذبات أجسادهم، لتمكنوا بالفعل من الظهور، أو على الأقل التأثير في العالم المادي للبشر....

أفقت من شرودي على صوت حسام: سيدي... لا بُد من حل للتعامل مع هذه الأشياء الخارقة.

- والعمل يا حسام؟!

- لنبحث عن حل سريع، ربما الشيخ رضوان هذا.

- يقول لك لن تجده، وأنا أعتقد أن الشيخ رضوان خرافة جديدة تضاف إلى خرافات منزل إبليس.

- وماذا بشأن الفتاة يا سيدي؟

- أية فتاة؟

- الفتاة في التخشيبة.

- اجعلهم يمدونها بالطعام والشراب حتى نرتاح بعض الشيء فأستطيع اتخاذ القرار...

نوم عميق يتسلل إلى ثنايا عقلي، وتبدأ عضلات العين في التأرجح كبندول الساعة والأجفان مغمضة، الأمر الذي يعني الاستغراق في حلم ما.

حجرة حجرية صغيرة مربعة الأركان، أرى على ضوء الشموع الضعيف المتراقص وعلى ضوء المدفأة المشتعلة بالحطب، دفء لزج يعم المكان، رائحة كأنها رائحة الشيطان ذاته تتسلل من أعواد بخور تملأ الأركان، منضدة خشبية عتيقة تآكلت حوافها.. رباه! أحلم داخل الحلم ذاته أم أنا أهذي؟.....

يدخل من الباب رجلان، أحدهما كهل في مشارف الستينات، والآخر قزم قميء عجيب الشكل والبنيان، يمسك الكهل بتلابيب القزم ويهزه بعنف، قائلا: أين البردية التي أخبرتني عنها؟

القزم: سُرقت مني يا شيخ.

الكهل: إذًا سأنتزع أصابعك التي فرّطت في اللفافة أيها الرخيص، أخبرني كم تريد ثمنا لها؟

القزم يميل برأسه للخلف في جشع مرعب: سيدي هي لا تقدر بمال.

- حدد ما تريد وسأعطيك إياه. فأنا أريدها.

- الكل يريدها، فهي كما تعلم تحمل سر الخلود.

- أنت كاذب ومخادع ولعين، يستل الكهل سيفًا.

ترتعد فرائص القزم ويرتجف بصدق: الرحمة يا سيدي، فلو قتلتني فلن تحصل عليها أبدًا، فأنا أحتفظ بها في مكان لا تصل إليه يد بشر.

- أريدها... يصرخ الكهل.

- والمقابل؟ يقولها القزم في جشع.

- قل ما تريد بسرعة.

- وماذا يملك مثلك ليقايضني بتلك الجوهرة الثمينة.

- أملك حياتك بين يدي. ورفع الكهل يده بالسيف، صرخ القزم بجزع: سأموت ولن أخبرك بمكانها.

- إذا فلتمت أيها القذر. وهوى بالسيف الذي بيده على يد القزم، فطارت على الأرض..

عويل وصراخ ودماء تملأ الأرض، والقزم يقفز ويتلوى من هول الصدمة، يسجد على الأرض من الألم، يتأمل يده المبتورة في عويل هستيري... ماذا فعلت يا مجنون؟ يصرخ في الكهل.

يضحك الكهل ببشاعة: إذا لم تتكلم سأذبح يدك الأخرى.

- لا لا، يرفع يده المبتورة أمامه، والدماء تنزف منها بغزارة.
- أخبرني -قالها الكهل بقسوة- أين هي؟
ويرفع يده بالسيف مرة أخرى، ولكن هذه المرة يتكلم القزم ببكاء شديد.
- سأقول سأقول.. لقد دفنت الخبيئة تحت شجرة الجميزة بجوار المدفن القبلي..
يضحك الكهل قائلا: هكذا ببساطة! سوف أربطك في هذه الحجرة حتى تموت إن لم تكن من الصادقين.
- صدقني لقد أخبرتك بالحقيقة، ولكن اتركني حتى أعالج يدي.
- لا.. ستمكث هنا حتى أعود بها أو أعود لأزهق روحك النتنة يا كريه.
يخرج الكهل ويمكث وقتا ليس بالكثير، ثم يعود وفي يده خرقة بالية ذات رائحة منفرة، يفتحها ويمسك ببردية بداخلها.. بردية قديمة قدم السنين عمرها قد يتجاوز الأربعة آلاف سنة، حقيقة ليس لدي فحص كاربوني أو موجات فوق صوتية لأستطيع تحديد عمر البردية، ولكن ورقها المهترئ وعلامات القدم تظهر جلية في شكلها.

- لقد صدقت وعدك أيها الكريه -صاح الشيخ- والآن حان وقت قبض الثمن، فانا لا آكل الحقوق، ولم أتعود الحصول على شيء مجانًا.

- وماذا ستعطيني؟ قال القزم الذي كان قد فقد قدرًا كبيرًا من الدماء بالفعل، وبدأت أعراض فقدان الوعي التدريجي وتنميل الأطراف تدب في جسده.

- سأدفع عمرك أيها الكريه، سوف أرحمك من عذاب الألم وأقتلك.

- لا لا. كانت تلك آخر كلمات القزم قبل أن يغيب تمامًا عن الوعي.

حمل الكهل البردية المهترئة في يده وقربها من الشموع، وعلى الضوء الضعيف المتراقص من الشموع نرى كتابة بلغة نوقن تمامًا أنها لم تخط بيد إنسان، طلسم عجيب ودق مسماري أغرب، وجوه لكائنات لم ولن نتصورها أعتى أفلام الرعب في عصرنا الحالي.

الكهل يحدث نفسه: لا بُد من الانتباه وترتيب الطقوس حتى لا يحدث خطأ وندفع الثمن غاليًا.

يفتح الكهل بابًا صغيرًا في أحد أطراف الحجرة، ويدلف داخل حجرة أصغر لا أكاد أتبين ملامحها.. وسرعان ما يعود حاملا فتاة جميلة بيضاء ترتدي فستانا أبيض، فاقدة الوعي، ولكننا نرى في وجنتيها حمرة الحياة.. يوقد الكهل أربع شمعات حمراء قانية وكأنها قد قُدّت من دماء الشياطين... وينثر بعض البخور، وتنتشر تلك الرائحة الكريهة اللزجة لتغلف المكان. يرسم الكهل نقشًا على الأرض وكأنه يحفظه عن ظهر قلب، يضع الفتاة فوق النقش، ويقف أمامه، ويتلو بعض الآيات من الذكر الحكيم.. انتظر.. هناك خطبٌ ما خطأ في الأمر.. إنه يقرأ القرآن بالعكس، أعوذ بالله، يمسك سكينًا حادًا ويشرع في سلخ الفتاة.. والفتاة ساكنة.. ما هذا؟ إنها تتحرك.. يكمل الكهل عمله ببراعة جراح عتيد، وكأن شيئا لم يكن، تستيقظ الفتاة وتصرخ ولكنه يعاجلها بضربة على رأسها تعيدها سيرتها الأولى.. يكمل عمله في سكينة القديسين.

والآن حان الجزء الصعب من المهمة، وهو أكل الفتاة حية، ويبدأ في تلاوة الطلسم النجس، ها هو الآن يأتي من الأفعال أقذرها، ويضاجع الفتاة التي سلخها حية وهو يأكل من لحمها،

ياللبشاعة! وكأن من أهم عوامل نجاح الطلسم هو انغماس المرء فيه بوجدانه وليس بعقله فقط.

فهو أصبح يهيم في تلك الشناعة المطلقة، ويرتل الكلمات التي لم يُنزل الله بها من سلطان، وإذا بالغرفة ترتج، وتتوهج النار في المدفأة وتنطفئ الشموع دفعة واحدة.

وعلى ضوء اللهب الخافت المنبعث من نيران المدفأة نرى جسدًا عملاقا يتجسد من اللاشيء، ونبصر أقبح وجه وقعت عليه عين إنسان، وترتسم على الجدران بالدماء كلمات ليست بأي لغة حية أو ميتة.

ولكني للعجب أستطيع أن أفهمها، تقول الكلمات: "لقد رضينا بقربانك لحضرنا، ولكنا لم نرضَ بك حتى الآن.. اسجد".

يسجد الكهل على الأرض.

أصوات شتى وصرخات قادمة من أعماق الجحيم لا تميز منها أية كلمات، ظلام شديد، رياح عاصفة لا ندري من أين تأتي والغرفة موصدة، وأخيرًا يرتفع جسد الكهل ويدور حول نفسه، ويلتصق بالحائط في وضع المصلوب، ولكن رأسه لأسفل في

تحد سافر لكل قوانين الجاذبية، لو كان نيوتن حاضرًا الآن لجزع جزعًا رهيبًا.

وأخيرًا يتفوه الكائن: ماذا تريد؟

يتمتم الكهل برعب شديد: أ.. أ.. أريد رضاك.

يقترب الكائن الرهيب من الحائط المعلق عليه الكهل قائلا: أنا أعلم ما في نفسك يا منفلوطي!

- سيدي، لست أطلب الكثير.

- لقد استخدمت طلسمًا لست بندٍّ له أيها الفاني، طلسمًا لا يقدر عليه إنسان، من أين لك بهذا الطلسم؟ وهل تعلم مع من تتعامل؟

- أعلم أنك قوي لدرجة تجعلني أخلد وأصير ملكًا.

ينفث الكائن ظلالا سوداء تعم المكان، ويتحدث ولكن بلا كلمات: تخلد لا، ولكن تصير ملكًا غنيًا، لا بأس، ولكن لكل شيءٍ ثمن.

- مُرني سيدي وعليّ التنفيذ.

- وماذا تملك أيها العبد الضعيف لتعطيه لمولاك؟ هل تحسبني جنيًا أو عفريتا ضعيفًا، أنا الذي لا اسم له.

وأشار بمخالبه فالتصق الكهل بسقف الغرفة، واستطرد قائلا: ربك وكفرت به، ابنتك وقتلتها. يطرق الكائن الرهيب ويقول:

لكنك قد تملك شيئًا أيها العبد الرخيص.. أنت تعلم أنه بإمكاني القضاء عليك بلمح البصر، وبإمكاني أن أعطيك ثروة وملكًا كبيرًا لا ينضب، ولكن بشرط.

- مرني سيدي.

- تعطيني البنت الأولى من كل سلالتك عروسًا لي إذا صارت امرأة.

يطرق الرجل يفكر.

- بماذا تفكر أيها الكهل الخرف؟ وهل تملك الاختيار؟ يضحك الكائن فتظهر أسنانه كأنها المناشير.

تسلخ قطعة من جلد الكهل بلا سكين وتطير حتى تصل ليد الكائن، ترتسم فوق الجلد كلمات وكأنما حفرت بجمرات من نار، حروف ونقوش لم ترد في قواميس البشر، ولكني للغرابة ما زلت قادرًا على فهمها، فقط كل ما استطعت تبينه مع ضعف الإضاءة هو سطر واحد يقول: هذا هو عهد بيني وبينك، والعهد نافذ ودمي وجلدي وعظامي شاهدين.

يسقط الكهل على الأرض دفعة واحدة، يزحف حتى يقترب من الكائن الرهيب، يلقي له الكائن بقطعة الجلد، والكهل يعلم جيدًا ما عليه فعله، يجرح يده ويقطر دمه على قطعة الجلد التي

خط عليها العهد الرهيب، تمتص قطعة الجلد دماء الرجل بنهم رهيب.

يرفع الكهل رأسه لأعلى مستبشرًا، يصرخ الكائن في وجهه: اسجد.

فيحني جبهته لغير الله.

* * *

- يا دكتور.. يا دكتور.

أفقت على صوت أم محمد المساعدة، وأنا على كرسي بالعيادة، نظرت لها بوجه خال من أي معنى: ماذا حدث؟!

أجابت السيدة: لقد انصرفت المريضة منذ نصف ساعة تقريبًا، وانتظرت حضرتك، تضرب لي الجرس كعهدك دائمًا، ولكنك لم تفعل، انتظرت وانتظرت وفي النهاية دخلت عليك، فوجدتك شاخص البصر تحدق في الصورة التي أمامك، حاولت أن ألفت نظرك ولكن بلا فائدة، هزرتك ولكنك لم تستجب، واستمر الوضع على ما هو عليه ما يقرب من عشر دقائق، ثم أفقت مرة واحدة من شرودك.

- هل هزرتني بيدك ولم أستجب؟! سألتها متعجبًا.

- نعم والله يا دكتور.

يبدو أن الوضع وصل لدرجة لا يمكن السكوت عليها، ويبدو أيضًا أن الموضوع حقيقي وإلا من أين للفتاة سارة أن تعلم بموضوع منزل إبليس والقائد سليمان، حتى إن كان ما رأيت من مشهد كابوسي للمنفلوطي وشيطانه من نسج عقلي الباطن لتكتمل أركان المصيبة في عقلي، فكيف تكون الرواية متقنة والمشاهد حقيقية إلى هذه الدرجة المستفزة.

أفقت من تساؤلاتي مرة أخرى على صوت أم محمد، ولملمت نفسي وخرجت من العيادة بلا كلمة واحدة، ترجلت على قدمي إلى المنزل، وفي طريقي قمت بالاتصال بأستاذي الدكتور عبد المطلب، وطلبت منه موعدًا بعيادته الخاصة، أتاني صوته عبر الهاتف جزعًا: خير يا طه، قلقتني عليك.. إوعى يكون الموضوع إياه؟ سكت صوتي ولم أستطع الإجابة.

قال الرجل: سأنتظرك بعد موعد العيادة، أنا عازمك يا عم على العشاء.

عرجت عليه في تمام الثانية عشرة بعد منتصف الليل، واصطحبني في سيارته إلى مطعم نخم في مكان هادئ بالمدينة.

❊ ❊ ❊

جلسنا على طاولة أنيقة بطرف المطعم تطل على النيل مباشرة، حضر النادل وطلبنا وجبتي العشاء، في الحقيقة أن مستوى المطعم فاخر لدرجة أني بدأت أغيّر رأيي في دخل أطباء الأمراض النفسية، بل وأشكر الحظ السعيد الذي جعلني واحدًا منهم إذا كنت سأستطيع تحمل فاتورة مطعم كهذا، فلا شك أن دخلي محترم جدًا.. نظر لي د. عبد المطلب بعيون يملأها التساؤل: أيوه يا سيدي هات ما عندك... قصصت عليه بإيجاز ما حدث وما جرى سواء بالحلم أو خلال مقابلتي مع سارة بالعيادة، وما شاهدته من أمر المنفلوطي... ثم سألته: الغريب في الموضوع أستاذي أن هذا الأمر لم يحدث لجميع بنات العائلة عدا الفتاة المسماة مريم!

- حسب حلمك الغريب فإن مريم هي الوحيدة التي تمردت على العهد، لست أعلم ولكني أعتقد أن في الأمر سرًا خفيًا، فعلى مر مئات السنين لا يحدث الأمر إلا مع فتاتين فقط، إن الأمر جد محير.

- أنت لم تعلم إلا بأمر الفتاتين، فلربما هناك المئات غيرهما.

- صراحة إن الصدمة شلت تفكيري تمامًا، فعلمها أو علمه بما يحدث لي في الحلم أمر منافٍ للمنطق، وحضرتك أكيد توافقني الرأي في هذا الشأن بالذات.

- والله لولا معرفتنا الوثيقة على مر السنين لشككت أنك تعاني من هلاوس يا طه.

- المرة القادمة سأقوم بتسجيل مقابلتي معه أو معها، لم أعد أتحمل.

- أنا ما زلت أرى أنك تعطي الأمر أكبر من حجمه، لمَ لا تذهب إلى هذا المكان أو تتحرى كتب الوقائع لنتأكد من حدوث الأمر من عدمه.

- المشكلة أن الموضوع حتى الليلة لم يكن يمثل لي أكثر من حالة غريبة، لا تستحق البحث والتحري، بالإضافة إلى أن الأحداث الماضية كلها تجري كالحلم، صحيح ترابطها محكم، ولكن مكان الحدث نفسه قرية منزل إبليس هذه، وأتفق معك طبعًا وحتى الآن أنا ما زلت أنكر كل شيء، ولكن موضوع قائد عسكر الجنوب الذي......

انفجر يضحك الدكتور عبد المطلب حتى تدمع عيناه، يعتذر ويقول: من المؤكد أن كتب التاريخ قد ذكرت تلك الواقعة، قائد

عظيم مثلك يا إبراهيم أو سليمان بك لا بُد أن حملته قد نوّه عنها البعض، قصة وحدوتة غريبة ومريبة مثل هذه أكيد تم ذكرها.

- حضرتك لن تستطيع تخيل ما أعاني منه.

- لا. بالعكس، أنا أتخيل يا طه، دراستنا للعقل البشري، وتجاربنا الكثيرة تؤكد الدور الكبير للعقل الباطن في تسديد وعلاج الثغرات على مستوى الوعي، ومهما بلغ منا العلم مبلغه فلن نستطيع معرفة كل أسرار العقل ولا ١٠ بالمائة حتى من إمكانياته التي حبانا الله سبحانه وتعالى بها، ولست الآن بمجال الشرح لك كيفية تعامل الإنسان على مستوى الوعي وعلى مستوى العقل الباطن، ولنفرض أن عقل الإنسان -وطبعًا أنت تعلم أننا نفضل لفظة عقل عن مخ؛ لما تحمله كلمة مخ من صفة تشريحية، أما العقل فيتعامل مع وجدان المرء وأحاسيسه وتفكيره- ولنفرض أننا قسمنا عقل المرء إلى شخصين؛ الأول هو وعيه، وهو الذي يتعامل مع المعطيات الحياتية، وهو الذي يتولى زمام الأمور، وهو ما نعرفه عن الشخص أو ما يواجه به الشخص العالم الخارجي، وليكن الشخص الثاني هو العقل الباطن، أو ما يفضل البعض أن يطلق عليه النفس، وهي ليست أمّارة بالسوء فقط، بل يقول الله تعالى في كتابه الحكيم:

"ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها"، والمراد هنا أنها قد تكون نفسًا فاجرة خبيثة وقد تكون نفسًا تقية فاضلة، والعقل الباطن هو ما يختبئ بداخل المرء لا يظهر إلا في ساعات النوم، أو عندما يتنحى الوعي نتيجة ضغوط معينة، فيظهر العقل الباطن في الصورة ويتولى الدفة والقيادة، ويالها من قيادة! وفي حالتك تلك هناك احتمالان، الأول أن تكون الفتاة تعاني من انفصام وهناك صراع داخلي بداخلها على السلطة، والدوافع شتى، أو أن يكون الخلل بك أنت يا طه، أما موضوع الكيانات والشياطين فأنت تعلم تمامًا كم نمقته، وبالطبع موضوع تناسخ الأرواح وسفرك الزمكاني فهو الخرف بعينه، وإن كنت لا أثق بعقلك الباطن، فهو عقل طبيب نفسي محنك.

- صدقني وأنا مثلك دكتور عبد المطلب، أولا بالنسبة لموضوع الفتاة فسوف نقطع الشك باليقين، وأدعو سعادتك أن تناظر معي الحالة بنفسك، لأني حقيقة أريد أن أطمئن على عقلي، أما الخطوة الثانية فهي بحثي في الوقائع وفي كتب التاريخ المصري القديم عن أحداث مشابهة، سأتوجه من فوري صباحًا لدار الكتب المصرية وأبدأ البحث، وسوف أعلمك بكل جديد.

شكرته كثيرًا على اهتمامه بل وقلقه الزائد علي، واتفقنا على لقاء قريب، أصرّ على أن يقلني بسيارته حتى المنزل وبالتأكيد لم أستطع دعوته للدخول لأن الساعة قاربت على الثالثة صباحًا، ودّعته وصعدت، والحقيقة المؤكدة أني أصبحت خائفًا حقا من النوم لأنه قد يحمل الكثير من الضغط الجديد علي، تأملت الموضوع من جميع جوانبه، وحاولت تحليله بهدوء، صحيح رأي د. عبد المطلب، وأنا بكوني طبيباً وطبيباً نفسيًا أرفض تمامًا ما يحدث لأنه يتنافى مع كل قواعد العقل والمنطق، ظللت أفكر لساعات ولا أدري متى تسلل النوم إلى عقلي، وغبت في نوم لذيذ لم أهنأ به منذ معرفتي بتلك القصة المشئومة، فتحت عينيّ على ضوء الصباح وأصوات الناس بالشوارع، دائمًا ما هناك أصوات لأناس بالشوارع يتحدثون ويتشاجرون، لا أدري لماذا صوتهم دائمًا عالٍ، حتى وإن كنت تسكن مثلي بحي هادئ فسوف تفاجأ بأشخاص لا تعلم من أين جاءوا ولا يحلو لهم الشجار إلا تحت نافذتك، كأن الطبيب قد وصف لهم نافذتك بالذات دونا عن نوافذ الجمهورية لكي يتشاجروا تحتها، نفضت عني غبار النوم وأفكاري الفلسفية، غسلت وجهي وتوضأت وصليت وارتديت ملابسي بسرعة وتوجهت من فوري لدار

الكتب، وفي الطريق خاطبت صديقًا قديمًا لي مهتمًا دائمًا بكتب التاريخ، لا أعلم ما المتعة في هذا الاهتمام، ولكن للناس في ما يعشقون مذاهب.

أخبرني صديقي أنه مسافر لمدة أسبوع، ولكنه على صلة وثيقة بموظف صديق يعمل بدار الكتب، ومن محاسن الصدف أن صديقه هذا يهوى كتب التاريخ وبالذات التاريخ المصري، وقد دار بينهما حوار سابق عن تاريخ عائلات الصعيد الذي يستهوي الرجل؛ لأن له علاقة بجذوره الصعيدية.. أخيرًا وجدنا شيئًا مبشرًا بالأمر، وصلت الدار وبحثت عن صديق صديقي، وصراحة أبدى الرجل مساعدة منقطعة النظير، والملفت أن الرجل كان متعمقًا بالفعل في تاريخ الصعيد وبالأدق دشنا ومنفلوط، وعندما علم باسم القرية طرأ عليه التفكير العميق، وأخبرني أنه مرّ عليه هذا الاسم ولكنه لا يتذكر متى ولا أين، ولكنه بالتأكيد قد مر عليه، فمثل هذا الاسم لا يمكن نسيانه بسهولة، وشرع يبحث في بعض الكتب القديمة جدًا جدًا، حتى جاء بكتابٍ مهترئ الغلاف والصفحات، كتبت عليه بخط اليد وبكتابة كوفية الشرح السديد في قرى ومدن الصعيد، وأخذ يتصفح الكتاب الذي يبلغ ألفي صفحة تقريبًا حتى توقف عند

الفقرة التالية، ودعوني أقرأها لكم كما وردت في الشرح السديد: وفي عام ١٥٢٦م الرحالة سونيني في العصر العثماني يقول: إن منفلوط أكبر وأوسع من مدينة المنيا، وأن شوارعها أفضل تنظيمًا وبيوتها تكتنفها الفاكهة، وتجارتها تشمل كل أنواع الحبوب والأقمشة، ومنفلوط مدينة في صعيد مصر تقع على الجانب الغربي من نهر النيل (٣٩٠كيلو متر) جنوب القاهرة، ويذكر علي باشا مبارك في خططه: أن الاسم الأصلي لها منبالوط، وهي كلمة قبطية معناها (محط القرابى) أي (الحمر الوحشية)، لكن الديانة المصرية القديمة لم تعرف الحمار الوحشي كحيوان مقدس، كما أن المنطقة التي تقع بها منفلوط كانت تقدس في العصور الفرعونية حيوانات أخرى منها (البقرة حتحور) والتمساح النيلي، وحاول كثير من الرحالة إعطاء تفسيرات أخرى لكلمة منفلوط، غير أنهم فشلوا في التوصل إلى معنى محدد لأصل الاسم، ويؤكد ذلك ما ذكره كل من ابن جبير وابن بطوطة بأن صلاح الدين الأيوبي زار منفلوط ولاحظ أنها مزروعة بأجود أنواع القمح، ومنذ ذلك الوقت وجدت هناك شونة سلطانية كبيرة ذات سور وبوابة ضخمة يُشنق عليها الخارجون على القانون مثل باب زويلة في القاهرة، وأجرى السلطان المملوكي الناصر

محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هجرية- ١٣١٥م مسحًا لأرض مصر عرف باسم الروك الناصري أقر فيه منفلوط كقاعدة للإقليم، واستمر هذا الوضع قائمًا حتى العام ٩٢٣هجرية ١٥٢٦م، وتتبع مدينة منفلوط عدة قرى علمت بقرية تتبعها يحدث بها
الأعاجيب تسمى منزل الشيطان أو منزل الإبليس، ويروي العجائز أن هذه القرية حدث فيها من أمور السحر والشعوذة ما يشيب له الولدان، وأن الوالي المملوكي حين ذاك قد بعث بخير جنوده القائد سليمان بن محمد الأركي، بعد أن توفي قائد الجنوب في تلك القرية إثر أحداث غامضة، ومكث القائد سليمان بن محمد الأركي ثلاث عشرة ليلة قمرية بتلك القرية، ولم يظهر له أثر مرة أخرى بكتب التاريخ، ولا يدري أحد ماذا حدث له في تلك القرية، عافانا الله القوي وإياكم من شر ما خلق، رفعت عيني عن الكتاب، ونظرت للرجل ولم أستطع أن أتفوه بكلمة، استأذنته أن أصوّر بكاميرا المحمول بعض الصفحات الخاصة بتلك القرية من الكتاب، وسألته عن المؤرخ، وقد أعرب لي عن ثقته الشديد في مؤلف هذا الكتاب، حيث إنه ورد اسمه كثيرًا ضمن الرحالة المؤرخين الأقوياء الذين تم الاعتماد عليهم كثيرًا في التأريخ لجنوب مصر.

شكرت الرجل كثيرًا على ما ساعدني به من جهد وفكر، وخرجت من الدار وأنا لا أدري إلى أين أتجه، غربت الشمس وأنا ما زلت هائمًا لا أدري أين الحقيقة فيما أرى، ثم توجهت إلى العيادة، وما إن دخلت حتى أخبرتني المساعدة أن هناك شخصًا ما اتصل على هاتف العيادة ويدعى سليمان، وطلب طلبًا خاصًا أن يأتي الطبيب إلى بيته في كشف خارجي، وكنت قد وضعت حدودًا منذ افتتاحي العيادة أنه لا مجال للكشف المنزلي في الأمراض النفسية، فإن كان المريض لا يستطيع القدوم للعيادة فبالتأكيد هو في حاجة لطبيب زميل في تخصص آخر أكثر من احتياجه لي في الوقت الراهن، اندفعت أعلم أم محمد للمرة الألف، أنه لا يوجد كشف لطبيب نفسي في منزل خاص، ولكنها استوقفتني مبكرًا بقولها إن المريضة اسمها سارة، ووالدها هو المتصل، وأبلغني رسالة أخبرها لحضرتك، أنه يريدك أنت دون غيرك، وحالة ابنته صعبة جدًا، وهو يترجاك أن تحضر وأملاني العنوان، لم أفكر لأن الشغف كان أقوى مني، بالإضافة إلى قلقي على الفتاة، فحتى لو لم يكن مرضها نفسيًا بالفعل، فهي مريضة وليس لها ذنب، انتهيت من الثلاثة كشوفات المنتظرة، وكانت الساعة اقتربت من التاسعة، أخذت العنوان من أم محمد

وتوجهت صوب المنزل، عمارة عادية جدًا، صعدت إلى الدور الثالث لأجد لوحة ذهبية معلقة على الباب باسم الأب، سليمان المنفلوطي ناظر بالتربية والتعليم، طرقت جرس الباب، ففتح الباب بلهفة رجل في العقد الخامس من العمر وسيم الملامح، وإن كان قد فقد كل شعره تقريبًا يرتدي نظارة أنيقة، سلّم الرجل عليّ بحرارة وأشار لي بالدخول قائلا دكتور طه، أومأت برأسي أي نعم، تحاشيت النظر في أرجاء المنزل، ولكن حانت مني بعض الالتفاتات، شقة هادئة متوسطة الحال ولكن أنيقة، وكان جليًا أن الأسرة مثلها مثل أي أسرة من الطبقة المتوسطة التي تكافح الليل بالنهار لتبقى، سألني ماذا أشرب، شكرته فأصر، فطلبت فنجان قهوة مضبوطًا، دلف الرجل للداخل ومرت ٥ دقائق، تأملت صورًا موضوعة بجواري في غرفة المعيشة لمراحل مختلفة من أعمار الأبناء، وتعرفت بالطبع على صورة سارة، حضرت والدتها وقدمت لي صحيفة القهوة، تبينت حزنًا شديدًا بل ودموعًا محبوسة في مقلتيها، تحدث الرجل: لا أعلم ماذا أخبرك دكتور طه، ولكن نحن في مصيبة كبيرة، الموضوع بدأ تدريجيًا حتى أنني كنت أسخر وأداعب سارة في البداية بشأنه ولكنه بدأ يتطور بعنف، وأقسم لك إن الشيء الموجود بداخل

تلك الحجرة -وأشار بيده جهة اليمين- هذا الشيء ليس ابنتي، أنا أعلم أنها زارتك أكثر من مرة وحدها، ولقد زرنا الكثير من الأطباء، ووصفوا لها مئات الأدوية والمهدئات النفسية، ولكن أحدًا لم يستطع أن يساعدنا في مصيبتنا حقيقة، حتى بت متأكدًا أنه لا شفاء مما ابتلينا به، نحن نعيش مأساة بحق.

هنا انفجرت السيدة في بكاء شديد، عقدت ساعدي أمام صدري وأخبرتهم أنني أريد أن أراها، دخلت السيدة أمامنا ثم أشارت لنا بالدخول، رائحة عطنة كأنها رائحة القبور تملأ الغرفة، تتداخل معها رائحة معطرات وبخور من الواضح أنه تم استخدامها في محاولات فاشلة لإيقاف زحف تلك الرائحة الرهيبة على الأنوف.

- هذه الرائحة لا تذهب. قال الأب.

قلت في نفسي: بالتأكيد، فأنتم بالطبع لستم من عشاق رائحة القبور إن كان للقبور رائحة.

وجهت نظري صوب الفراش، وفي الحقيقة حضرني على الفور مشهدان، مشهد الملاك البريء في تخشيبة العمدة بمنزل إبليس، المشهد الذي يدمي قلبك تأسيًا على حال تلك الفتاة المسكينة، وقد تم تقييدها بحبال غليظة إلى السرير، والمشهد الآخر هو مشهد

الفتاة الملبوسة في رائعة وليم بيتر بلاتي طارد الأرواح الشريرة، ووليم بيتر بلاتي لمن لا يعلم هو بالإنجليزية: William Peter Blatty مواليد ٧ يناير ١٩٢٨ في نيويورك - الوفاة ١٢ يناير ٢٠١٧، هو مخرج وكاتب سيناريو وروائي أمريكي، كما أنه من الفائزين بجوائز الأوسكار وجائزة غولدن غلوب، كتب رواية طارد الأرواح الشريرة سنة ١٩٧١، والتي تم تجسيدها لفيلم يحمل نفس الاسم سنة ١٩٧٣، والذي فاز بجائزة الأوسكار لأفضل كتابة سيناريو، وكثير من المهتمين بأدب الرعب يعتبرون رواية ويليام بيتر بلاتي، طارد الأرواح، أكثر رواية مُرعبة كُتبت في التَّاريخ، بالتأكيد يختلف بعض القُرَّاء مع الأمر، ويشعر آخرون أنه ينطوي على بعض المُبالغة، لكن هذا لا يُمكن أن ينفي حقيقة أن الرواية دائمًا ما تأخذ مركزًا مُتقدِّمًا في أيِّ قائمة يعدّها هواة أو متخصِّصون تُفصِّل لأفضل ١٠ روايات مُرعبة كُتبت على الإطلاق، بل وتحتلَّ الصدارة في كثيرٍ منها.. وبطبيعة الحال، بات كل كاتب يُفكِّر في احتراف هذا الضرب من الأدب مُجبرًا على ليِّ رقبته بعنف إلى أعلى لينظر إليها، تعود طارد الأرواح إلى واقعة حقيقية حدثت بالفعل في أواخر أربعينيات القرن العشرين، ففي أغسطس عام ١٩٤٩، تناقلت

الصحف الأمريكية خبرًا غير معتادٍ عن صبي من ولاية ميريلاند أُنقِذ من قبضة مسٍّ شيطاني بفضل طقس طرد أرواح قام به أحد القساوسة، وحكت الأخبار كيف أن الصبي أظهر أعراضًا غير طبيعية كالتحدُّث بلغة لم يألفها في حياته قط، وظهور رموز غريبة على جسده من تلقاء نفسها، واندفاعه في نوبات هياجٍ عارمة مليئة بالفحش والألفاظ النابية، بالطبع لم تكن تلك أخبارًا مُعتادة من التي تتداولها الصحف بشكلٍ يومي، لذا انتشرت القِصَّة على نطاقٍ واسع، وأفزعت جيلًا كاملًا من الأمريكيين ومن غير الأمريكيين، ولا أخفيكم قولا وصدّق أو لا تصدق، فأنا أعتبره الفيلم الوحيد الذي لا أستطيع مشاهدته ليلا أو وأنا وحدي.

نعود لسارة البريئة الجميلة المقيدة من أبويها الوحوش، ونعود للسذاجة التي قتلت آلاف القطط من قبل، لماذا تربطونها بهذا الشكل؟ واتجهت صوبها لأفك القيد.

- احذر يا دكتور. قال الأب بسرعة، وللأسف كالعادة جاء التحذير متأخرًا.

ففي اللحظة التي مددت يدي جهة الحبل المربوط لأساعدها، انقضت عليّ الفتاة وكأنما نشطت من عقال، كاد قلبي يتوقف

من هول المفاجأة، وتحول الوجه الرقيق للفتاة التي زارتني من قبل إلى وجهٍ حيواني قبيح يعلوه مخلفات طعام وشعر منفوش، وعيون غائرة وأسنان، رباه! هل أتخيل؟ أم أن أسنانها لم تعد تشبه أية أسنان بشرية على الإطلاق؟ حدّق فيّ الوجه الكريه وتفوّه بكلمات ليست من معاجم البشر، ولكنها مجموعة من الهسهسات والنقر بالفم، استجمعت شتات نفسي واستعدت هيبة الطبيب النفسي الذي لا يهاب هذه الأشياء ولمست يديها، فإذا بها تجذب يدها بالحبل تجاه فمها، تريد أن تعض يدي، فأبعدت يدي بسرعة، وسألتها: ماذا حدث يا سارة؟ همّ الأب بالإجابة، ولكني أوقفته بإشارة من يدي، فحت الفتاة كالأفعى، ولكي تسكت أي شك ما زال يحوم بداخلي تفوّهت الفتاة بلغة عربية مصرية عامية ولكن بحنجرة رجولية، ارتددت للخلف من هول المفاجأة، فضحكت أو ضحك المسخ، كان كل ما خرج من فمها كلمة واحدة هي: اسجد، قالتها وأخذت تضحك في هستيريا.

- ماذا حدث يا سارة؟

- برده ماحرمتش يا دكتور؟

- أهلا وسهلا، هلا شرفتنا باسمك؟ سألتها.

ضحك قائلا: اسمي اللي مايتسماش، أما أصلي، وللا بلاش علشان بتزعل يا طه، وبعدين ليه مش عايز توفر على نفسك نفس الحوار البايخ المتكرر كلما رأيتني، هتتجنن.. مش كدة؟ مش قادر تتخيل إن كل اللي علمهولك أوهام.

رأيت نظرات التلذذ والتشفي في عينيه اللتين احمرّتا إلى درجة تبشر بنزيف.

- أيوه يا دكتور يا بتاع العقل والنفس، كل اللي اتعلمته في الكتب وهم، أنا الحقيقة المطلقة، وكلكم ضعفا قدامي، لو حبيت أموتها هموتها في لحظة.

- طيب خلينا نتعامل بطريقتك، أيوه أنا لا أخفيك أني تقريبًا قربت أصدق إنك عفريت..

يقهقه المسخ بجنون: عفريت! وكل ده وقربت تصدق! صدق أو لا تصدق، أنا حقيقة مطلقة.

- طيب بما إن الطب والعقاقير والعلاج النفسي ملوش دور، أكيد علاج العفاريت هيجيب معاك.

يضحك ثانية بوحشية حتى تظهر أسنان الفتاة مدماة: اللي هو إيه بقى علاج العفاريت؟ يا ترى بقى يا شيخ طه، هتقرأ عليّ البقرة؟!

- وليه لأ؟

- دي خزعبلات خلقناها وكبرناها في دماغكم وغزينا بها عقول أتباعنا من الدجالين والسحرة عشان نكمل الصورة.

- على كدة بقى مفيش حاجه تقدر عليك.

- حاول.. جرب. يخرج لسانه من فمه ويحركه في حركات طفولية مقززة.

- طيب أنت حضرتك عايز إيه؟

- أنا؟! -يسأل الشيء مستنكرًا- أنا مش عايز أي حاجة، أنتم اللي عايزيني أسيب مراتي، أنا راكبها، ومش هسيبها إلا بالدم، دي مكتوبالي.

- مفيش حاجة اسمها زواج إنس بجن.

يضحك المسخ مجددًا: ومين قالك إني جن؟ أنا أعظم بكتير.

- يا أخي لا عاجبك إنس ولا جن -قلتها بتهكم- طب رسّينا على بر عشان نعرف نتفاهم.

- أنت رخيص أوي يا طه، هتفضل برة الجامعة تشوف زملاءك واللي أصغر منك أساتذة وأنت طبيب عادي، هتفضل متعذب طول عمرك، حتى البنت اللي حبيتها بجد راحت لغيرك، المشكلة

مش فيهم يا طه، المشكلة فيك أنت، المشكلة إنك فاشل.. فاشل.

ظل يرددها حتى ظننت أنه لن ينتهي، من الطبيعي عندما تضغط على أي إنسان أن يخرج أسوأ ما فيه، وهنا هو الوقت المناسب لتولي العقل الباطن الدفة والخروج عن السيطرة، ولكني لست بشخص عادي، فأنا طبيب نفسي شاطر جدًا، أو على الأقل أحسب نفسي كذلك، ولقد خضت صراعات نفسية كثيرة وأعلم أن ضبط النفس والسيطرة على الانفعال صعب، ولعب الخصم على نقاط الضعف الحساسة جدًا في حياتك ليس بالأمر الهين على أي شخص، ولكني وبمنتهى البساطة سألته مباشرة: أنتِ أكلتي؟ محولا دفة الحديث تماما لصالحي، بهت الكائن مرة واحدة وبحظت عيناه بضيق شديد، وأكاد أقسم أني بالفعل أرى وجهًا آخر في ملامح الفتاة الرقيقة، وجهًا كأنه رؤوس الشياطين مجتمعة، وانطلقت الفتاة دفعة واحدة تفرغ ما في معدتها إن كان في معدتها شيء، وبدأت تتلوى بعنف، ومنامتها تتعرى عنها مظهرة ساقين مربوطتين من القدم، ورأيت بأم عيني حروفًا مكتوبة بالدم على ساقها اليمنى وكأنما قطعت الحروف بسكين، ميزت بها حرف الواو تعلوه نقطتان يظهر جليًا

بقوة، ولكن للأسف لم أستطع فهم بقية الحروف، حيث كانت مكتوبة بحروف عربية ولكن بلا معنى مفهوم، ظلت الفتاة تهتز بقوة، حاولت تثبيتها، وحاولت إبقاء رأسها في وضع يسمح بمرور الهواء، حيث بدأت تظهر عليها أعراض اختناق ونقص الأكسجين، ظلت ترتجف لحظات كأنها دهر، ثم هدأت دفعة واحدة، أعطيتها محقنًا مهدئًا شديدًا كنت قد أحضرته معي، وسرعان ما راحت في سبات عميق، خرجت بالأهل إلى ردهة المنزل، وأخبرتهم أنه لا بُد من نقلها إلى مستشفى فورًا؛ لأن الحالة خطيرة بالفعل.

أجابت الأم: وماذا ستفعل المستشفى والأدوية أمام ما رأيت يا دكتور؟ لقد سلكنا مسلك الطب منذ فترة وخرجنا صفر اليدين،

قلت لها بحدة: وأيضًا سلكتم مسلك الدجالين، وبماذا خرجتم؟

أطرقت الأم ونظرت إلى الأرض، فشعرت أنها تريد أن تتحدث عما بداخلها، فأكملت حديثي: نعم أخبروني بما فعلتم، حقا إن أمور الدجل والشعوذة بقدر ما هي أعمال مشينة وتندرج في نظر القانون تحت طائلة أعمال النصب والسرقة، إلا أن الجميع يظل دائمًا شغوفًا بها، ولدينا جميعًا تساؤلات شتى عن مهارة المشعوذ وخفة يد الساحر، وهل فعلا يمتلك بعضهم قدرة على التعامل مع

عالم الجن؟ وهل يستطيعون الاستعانة بهم واستخدامهم في أغراضهم الخبيثة؟ ودائمًا ما لا تملك الضحية الكثير من الثبات النفسي والعقلي، ويهرب بها ذهنها إلى سهولة استخدام الطرق اللاواقعية أو العلوية على حد تعبيرهم للخلاص من المشكلات التي تهددهم، نظرت إلى الأم وخاطبتها: أريد أن أعلم ماذا حدث عندما لجأتم إلى أعمال الدجل.

رفعت السيدة عينيها ونظرت إلي وبدأت الدموع تنسال مرة أخرى من عينيها وشرعت تحكي: لقد أخبرتني أختي عن شيخ سرّه باتع، يخاوي الجن وبيتعامل مع العفاريت زي ما بنتعامل مع البشر، وله كرامات كتيرة مجربة، وحكت لي قصة جارة ليها، كان معمولها عمل متخلفش، وإزاي الشيخ ده قدر بفضل الله يخلصها من العمل وقدرت تخلف، المهم اتفقت مع أختي وأخذنا سارة وذهبنا للشيخ، رفضت سارة في البداية وعارض والدها بقوة الموضوع، لكن مع تكرار الأشياء العجيبة اللي بتحصل في البيت، وبعد ما قولت له إني شوفت بنفسي الكيان المشعر ده وهو بيهرب داخل المراية، لم يجد سليمان بدًا من ذهابنا إليه..

نظر الأب إلى الأرض ولمحت دموعًا تترقرق وتتجمع في عينيه، يا الله! كم كنت مخطئة يا سارة عندما ظننتِ أن أي حب لا بُد له

من ثمن، فلو خيّرت هذا الأب المكلوم بين حياته وبين أن تعود لابنته صحتها، لاختار ابنته بلا لحظة تردد واحدة.. استدرجت السيدة لتتابع حكايتها: وبعدين؟

- وبعدين وصلنا للمكان.. بيت مكون من طابق واحد في منطقة ملاصقة للمقابر التي تقع على أطراف المدينة، كانت صالة الانتظار تحوي العديد من الناس، أغلبهم وجوههم خاوية من التعبيرات وكأنهم فقدوا الكثير من المشاعر قبل وصولهم إلى هذا المنحنى، انتظرنا ما يقارب الثلاث ساعات حتى حان دورنا.. سارة سليمان، قام الرجل مساعد الشيخ بالنداء.. اتفضلوا.

دخلنا على الشيخ فوجدناه يفترش الأرض، وقد وضع أمامه إناءً كبيرًا يحوي ماء نظيفًا.. كان يرتدي جلبابًا أبيض ويعتمر عمامة خضراء، وجه ملائكي يبعث في قلبك الثقة والأمان، وإن كنت قد لاحظت نظراته الخفية لأجزاء من جسد سارة، وبالرغم من محاولاته الجاهدة لإخفاء نظراته الحسية الجنسية، ولكن كيف لأم كل ما يشغلها في الحياة هو ابنتها أن لا تدرك تلك النظرات؟

- أهلا يا بنتي. ومد يده لسارة بالسلام، أمسك بيدها في يده وأطال، حتى اضطررت أن أتحدث حتى يترك يدها: إحنا جايين من طرف الحاجة سعاد هي اللي دلتنا على حضرتك.

أومأ برأسه وابتسم وترك يد البنت: اسمك سارة مش كده؟ بقالك كتير مش عارفة تنامي.. وتنامي إزاي وهو مش سايبك ليل ولا نهار؟

- وبعدين يا شيخ؟ قالت أختي.

نظر لها وكأنه يراها أول مرة وخاطبها: عايز حقه في مراته... بس ماتخافيش، وأطرق برأسه ونظر لبين يديه، ثم نظر جهة اليمين إلى الفراغ وتحدث بكلمات لم أفهمها.. وكأنه يحدث شخصًا خفيًا، ثم نظر جهة سارة ثانية وقال: عايز حتة من هدومك التحتانية.. حينها نظرت سارة لي برعب، فوضعت يدي على كتفها أطمئنها، وأخرجت من حقيبتي قطعة ملابس داخلية كنت قد أحضرتها معي سلفا بناء على ما أخبرتني به أختي، أمسك قطعة الملابس وتشممها، ثم غمسها في الإناء الذي أمامه.. غطى الإناء بملاءة سوداء، وانحنى فوقه وتمتم ببعض الكلمات التي لم نسمعها، وعندما رفع الملاءة تجمد الدم في عروقنا، فقد وجدنا الماء قد تحول للون الدم.. وبدأت سارة ترتعش رعشات قوية.. ثم

اعتدل ظهرها وتحول صوتها مخاطبة الشيخ: عايزها يا بن.......!
أنت عارف أنا مين؟

نظر الشيخ أمامه لسارة واختفت النظرات الخبيثة وحل محلها رعب واضح في ملامحه.. وإن أخفى صوته ما فضحته عيناه: هتكون مين يعني؟!

تباعد سارة ما بين ساقيها وترفع تنورتها في منظر مخل لم ولن أتخيل ما حييت أن تأتي ابنتي بمثله على مرأى ومسمع مني، وتقول للرجل: قرّب، تعال لو تقدر، يزداد شحوب الرجل، ويخاطب سارة قائلا: مش هارحمك.. تضحك سارة بعنف وتجحظ عيناها ويظهر الصوت الرجولي خارجًا من فمها بأقذع وأقذر الألفاظ التي من الممكن أن تقال على لسان مخلوق، ينظر الشيخ لكتفه الأيمن كأنه يتكلم، ثم يقف مرة واحدة ويعود بظهره ليلتصق بالحائط في رعب حقيقي، تضحك سارة بهستيريا وينطلق الصوت الرجولي مرة أخرى، ولكن هذه المرة وهي تنظر ناحيتي: هو ده اللي جيباه عشان يقدر عليّ؟ يرتفع الرجل عن الأرض وكأن يدًا خفية تحمله، يضرب الأرض بقدميه كمن يختنق، ويقول: الرحمة.. الرحمة.. تنظر سارة تجاهي وتصرخ

أختي.. تتحرك شفتاها مرة أخرى: مش هسيبها، وهخلص على أي حد يقرب منها حتى بعينيه.

تتعالى صرخات الشيخ، وتتعالى ضحكات الشيطان، دخل المساعد بسرعة وبدأت النار تشتعل في كل أثاث الغرفة، ثم بدات تشتعل في جسد الشيخ، وللعجب لم تمسنا تلك النار بسوء، ثم بدأ جسد سارة ينتفض بقوة وأغشي عليها، كان كل همي هو ابنتي وأن تعود إلى وعيها، وعندما أفاقت أخذناها وهربنا مسرعين من المنزل المشئوم، وعلمت بعد ذلك من أختي أن الشيخ قد قتِل محروقا بالنار... وأدركت تمامًا ألا خلاص مما أصاب ابنتي، فلا طب ولا علم ولا سحر، ولا أي شيء قادر عليه...

أنهت السيدة حكايتها وأخذت تبكي بصدق وترتجف، احتضنها زوجها ورفع كفيه إلى السماء قائلا: الله وحده قادر على أن يعافيها، فالله هو القوي العزيز.. وفي تلك اللحظة سمعنا صرخة قوية آتية من غرفة الفتاة...

جريت بسرعة إلى غرفتها، فوجدتها فاقدة للوعي...

خرجت إليهم مسرعًا ثم أخبرتهم أني أرى أن حالتها الصحية في خطر، وهي بحاجة لعناية طبية وسوائل وريدية، حتى نرى في

أمرها، لم أعطهم فرصة للتفكير، اتصلت بزميل لي صاحب دار محترمة للرعاية النفسية، وطلبت منه توفير غرفة لديه للفتاة، وأتممنا إجراءات نقل الفتاة، وقد سلّم الأبوان لي الدفة تمامًا بدون اعتراض، ولكن بعدم رضا.

نقلت الفتاة إلى المستشفى بسيارتي الخاصة، واطمأننت عليها بغرفتها ووصفت لها بعض الأدوية المهمة، أجريت اتصالا مع دكتور عبد المطلب وأخبرته بما قمت به من نقل للفتاة للمستشفى، وطلبت منه أن يشرف بنفسه بصفة شخصية على علاجها بالمصحة.. ثم تركتها في سباتها، وتوجهت إلى المنزل.

في اليوم التالي....

تقابلت مع د.عبد المطلب بعد أن ناظر حالة الفتاة في المصحة، وتناقشنا من جديد حول الحالة، وما زال الدكتور عبد المطلب يصر على عدم جدوى تشخيص الالتباس ويشخصها حالة انفصام، تستيقظ الفتاة وتتحرك شفتاها بالكلام، أهرع إليها وأمسك بيدها مطمئنا إياها: لا تجزعي، ليس هناك أية مشكلات، تنفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة وتقول: كيف هذا وقد صرت أنا مشكلة كبيرة؟ لقد تسببت بالمشكلات والفضائح لأهلي، وحتى بالنسبة لحضرتك دكتور طه.

يمسك طه بساعدها ويقيس معدل نبضاتها في محاولة لتغيير دفة الحديث وتهدئتها: سارة.. أريدك أن تروي لي أي ملاحظة أو شيء غريب لاحظته يخص موضوع الجني هذا.

تطرق سارة مفكرة تحرك رأسها أنها لا تتذكر شيئا بعينه، يدخل عليهما الطبيب زميله وصاحب الدار يطمئن على حالة سارة، يهتز السرير بعنف فيجفل الطبيبان، وإذا باللوحة التي بأعلى السرير الذي ترقد عليه الفتاة تسقط على الأرض وتتناثر قطع الزجاج، تلك اللوحة التي تحمل أسماء الله الحسنى، ينظر طه إلى اللوحة التي سقطت وتضيق عيناه، ويتعذر عليه قراءة أسماء الله، حيث إن اللوحة قد سقطت بالمقلوب.

يتحدث زميله الطبيب: ألا تعلم يا طه أن من الجن من يرتبط بأسماء الله، فمنهم من يتوكل بخدمتها ومنهم من تأسرهم وتسجنهم أسماء الله، وقد روي قديماً أن سيدنا سليمان عليه السلام كان يستخدمهم بها.

- أعتقد أن هذه خرافات، حيث لم يأتِ نص صريح بهذا الشأن سواء بالقرآن أو السنة. عموما موضوع الجن والشياطين وعلاقة سيدنا سليمان بهم يُعد من الغيبيات حتى وقتنا هذا، ولم يأتِ به أية نصوص صريحة، وما يُروى في التوراة على لسان سيدنا

سليمان ما هو إلا محض تحريف لخدمة أغراض معينة في العقيدة الصهيونية.

ويحاول طه قراءة الأسماء واللوحة مقلوبة، ولكنه لا يستطيع إلا بصعوبة، فالحروف تتغير مفاهيمها بقلبها تغيرًا جذريًا، تطرق الممرضة الباب وتدخل عليهم، وتكشف عن ساعد الفتاة لتغرس به محقنا بالدواء الذي تم وصفه بمعرفه د. عبد المطلب، وتتحرك الفتاة ويهتز السرير مرة أخرى، وتسقط الممرضة أرضًا من الخوف، وينحسر غطاء السرير عن ساقي الفتاة، ويظهر عليها بعض الكتابة بأحرف عربية ولكن للمرة الثانية لا يستطيع طه أن يميز بها إلا حرف الواو المقلوب تعلوه نقطتان، يهدأ جسد الفتاة ثانية، ويخبره زميله أنه في حياته كلها لم يرَ مثل تلك الحالة، ولكنه أصبح الآن يعتقد كثيرًا في أمور الغيبيات، في الواقع إن السحر حق والعين حق واستعانة الإنسان ببني الجن وتسخيرهم أيضًا حق، أما قدراتهم الخرافية في عالم الإنسان فإن الموضوع مسار كبير للجدل، فكيف لكيان ينتمي لبعد مختلف أن يؤثر في بعد آخر؟ وكيف كانوا يبنون التماثيل ويغوصون في البحار ويخدمون سيدنا سليمان عليه السلام؟! يسأل زميله.

- هذا الأمر مختلف، فتلك المعجزة قد منحها الله لسيدنا سليمان دون غيره من الأنبياء.

- كونه يتحكم فيهم هي المعجزة -أردف زميله- ولكن خدمتهم له حقيقة، فبالفعل هم يستطيعون التأثير في عالمنا.

- وهل تؤمن بهذه الأشياء أيها الطبيب النفسي؟

- طبعا أومن، فأنا قبل أن أكون طبيباً نفسياً فإني مسلم ومؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وديننا يبرهن بكل تأكيد على وجود ما أخبرك به.

- لا أعلم، لقد اختلط عليّ الأمر، فهذه تعد أول مرة أتعرض لحالة بهذا الشكل.

- أما أنا فقد رأيت الكثير. يتابع زميله.

- لا تعتبرها إهانة، ولكني طالما كنت أحسب الطبيب النفسي الذي يؤمن بهذه الأشياء طبيباً ضعيفًا، ولكن الآن أقسم لك أن رأيي قد اختلف كلياً، ولكن هناك أشياء تبقى بلا مبررات واضحة، بالتأكيد هناك ثغرات وأشياء بلا مبررات؛ لأن هذا الوضع الذي نتعامل معه يختلف كلياً وجزئيًا عن المعايير التي اعتدنا على التعامل بها نحن البشر، وبالأخص الأطباء النفسيون.

عدت إلى منزلي مجهدًا جدًا من عناء ذلك اليوم، بحثت عن السرير بصعوبة، سبحان الله أصبحت الآن أبحث عن علاج يبقيني يقظًا بدلا من السقوط نائمًا، دخلت حجرة نومي.. وما إن تمددت على السرير حتى رحت في سبات عميق.

ملِك أو سلطان هو لا أدري، حاشية.. جواري وخدم وحشم وقصر منيف، ووسط مجلس كبير بردهة ما يشبه القلعة يجلس الكهل "المنفلوطي"، وقد وُضِع أمامه كبشان وهو يأكل بشراهة ويتلمس صدر الفتاة الحسناء بجواره بوحشية، وينادي على الخادمة أن تأتي بالخمر، يشرب ويثمل ويضاجع الفتيات كشاب في العشرين، يضحك ويلهو، وفجأة يدلف الخادم: سيدي....

يفيق المنفلوطي على صوت خادمه. ماذا تريد يا لعين؟

- سيدي.. إن ولدك أحمد يريدك بشدة في أمر مهم وهو يبكي.

- ماذا تقول؟ أحمد ولدي يريدني! أغلى شيء عندي في الوجود يبكي! أدخله بسرعة.

ويصفع الجارية التي تحته، ويفيق من خمره دفعة واحدة، ويأمر بخروج الجميع، يرتدي ملابسه ويضع عمته ويخرج لمقابلة ولده:

تعال يا أحمد. ويأخذ ولده الغالي في أحضانه، ويدخل معه غرفة مجلس أوسع. ماذا حدث يا ولدي؟ لماذا تنتحب؟

- أبي.. لا أعلم ماذا حدث، لقد ابتلينا بمصيبة تكدر حياتنا، لا عيش لي يا أبي.

- أفصح يا أحمد ماذا حدث، من وما الذي يستطيع أن يجعل ابن المنفلوطي يبكي؟!

- والدي، أنت تعرف "نجلا" ابنتي البكرية وأعز ما عندي في الوجود، عندما بلغت عمر الزواج وفرحنا بها وهام بها الخطاب لجمالها الفتان، وقررنا زواجها من صاحب النصيب، وإذا فجأة يصيبها جان، يمنع عنها الرجال، ويحيل حياة الفتاة جحيمًا مستعرًا، لقد تحولت إلى مسخ، ولم يعد في استطاعتي فعل شيء، لقد فشل الأطباء وفشل السحرة، وفي جلسة من جلسات الشيخ رضوان.. رد المسخ على الشيخ وأخبره: أن اسأل جدها.. وقف المنفلوطي منبهراً مما يقال مشدوها وكأنه في حلم، وتذكر سنين طوالا مضت، وتذكر وهو ساجد تحت قدم الكيان الرهيب، وتذكر كلماته وعهده، ودمعت عيناه، نعم دمعت عينا الكهل العنيف الجشع، ولده يبكي بحرقة..

- لا أعلم ما أصنع يا أبي، ابنتي تموت.

احتضن المنفلوطي ولده والدموع تنهمر على لحيته، وربت على كتفه وأخبره أن يعود لابنته، واعدًا إياه أن كل شيء سينتهي، يرفع الابن عينيه في وجه أبيه وهو لا يصدق، قائلا: يا أبي لا يقدر عليه أحد.

يمسك المنفلوطي بكتف ولده ويهزها بقوة: وهل تعلم أباك ضعيفًا أو يعد ولا يفي يا أحمد؟ عد إلى ابنتك واطمئن، سوف أتصرف.

خرج الابن المحطم وأطرق الشيخ يفكر، وأخذ يسترجع الأحداث، صحيح أن كل ما هو فيه من خير جراء العهد الملعون، ولكنه قد خبر الغنى ومتع الحياة لدرجة الزهد، فلم يعد يشتهي الطعام الذي حُرِم منه، ولم يعد بشغوف بالنساء كأيامه الخوالي، وقد رخصت الدنيا في عينيه دفعة واحدة، يخبر الحارس أن يغلق عليه الباب من الخارج ولا يسمح بدخول أحد حتى يخبره.

يدخل حجرة حجرية جانبية يتلمس نقاطًا معينة بالجدار، يضغط على نتوء به فينكشف الجدار عن غرفة سرية كان قد احتفظ فيها بذكريات قرر أن ينساها منذ زمن، يمسك بمصباح كبير ويدلف إلى الحجرة السرية ويغلقها خلفه بحرص شديد، يفتح

صندوقًا كبيرًا مزركشًا ومزينًا بالزخارف والجواهر الثمينة، يمسك بورقة مهترئة للأسف سعدنا برؤيتها من قبل، يضيء بعض الشموع وتنتشر تلك الرائحة العطنة فتملأ جنبات الحجرة، يبدأ بتلاوة بعض الكلمات العجيبة، وتهتز الأرض أسفل قدميه.

مرة أخرى نعود للمنفلوطي وهو يتلو كلماته اللعينة وطلاسمه النجسة، ولكن هذه المرة النحيب يملأ صوته والدموع تنساب بغزارة على لحيته، يتهدج صوته فهو يعلم جيدًا أنه مثلما كان هناك طلسم للإجابة فهناك طلسم للاستغناء، ولكنه بالطبع يعلم أن دخول الأمر ليس أبدًا مثل الخروج، وأن الخروج ليس أبدًا بالأمر الهين، فما عاش فيه من رغد وما نعم فيه من ملذات الحياة وأموالها وكنوزها بدون أي وجه حق، لا بُد له من ثمن، صحيح أنه قد دفع الكثير مقدمًا، ولكن ما بينه وبين الشيء قد يكون أقوى بكثير من حياته ذاتها، صحيح أنه تنعّم وصار غنيًا لا يفكر بشيء إلا ويجده تحت أقدامه، ولكن في الحياة أشياء أهم بكثير من المال والملذات، أشياء لم يكن يفكر فيها ولا يعيرها أي اعتبار عندما قرر أن يعقد عزيمته الرجسة، ولكن الآن هذه الاعتبارات قد تكون أغلى من حياته ذاتها، نعم، فسعادة ولده أغلى عليه من كنوز الدنيا، ياليته كان يعلم هذا من قبل، ولكن

الله قد خلق كل شيء بأوان، لقد خبر الملذات وزهد فيها، ولأول مرة في حياته الدنيئة يبكي المنفلوطي بصدق، يعضّ على شفتيه ألمًا، نعم هو يعي جيدًا أن هناك ثمنًا كبيرًا لا بُد أن يسدّد، ربما يكون أغلى من العهد ذاته، كل تلك المشاعر المتأججة تدور في داخله وهو يقرأ طلسمه، وما زالت الأرض ترتجف وكأنها تتمخض، وإذا بالرائحة تزداد عطانة، وتدور رياح بالغرفة المغلقة لا ندري مصدرًا لها، ويتحدث صوت قائلا: اسجد.

يقف المنفلوطي رافعًا رأسه لأعلى غير عابئ بما يقال، يتجسد في الهواء دخان أسود قاتم كثيف، ويظهر في وسطه أسنان كأنها المناشير تقترب من جسد المنفلوطي وتصرخ: اسجد أيها النجس. يكمل المنفلوطي ما بدأ فيه كأن شيئًا لم يحدث، تلتهم الأسنان ذراعه فيصرخ الرجل من الألم، ولكنه ماضٍ فيما أراد لا محالة، وأخيرًا يتحدث الكيان فتخرج الكلمات كأنها نيران موقدة: إذًا فأنت تريد إنهاء ما بيني وبينك.. هكذا بكل بساطة، حذرتك قبل البداية وها أنا أحذرك مجددًا قبل النهاية، أنا الذي لا اسم له، لا أموت ولا أعجز، وأنت أيها الفاني الجشع تتحدى إرادتي، ليس التخلص مني واردًا في قواميسي أيها الخرف، وما تحمله في يدك من طقس، أنا الذي وضعته.

ومن قلب الظلام الدامس تظهر قطعة من الجلد معلقة في الفراغ، تمسك بها أيدٍ مخلبية مشعرة، تتأجج نيران حول الورقة، ويتحدث الكيان ثانية: ألا تذكر هذا المكتوب يا منفلوطي منذ ٧٠ عامًا من أيامكم؟ ألا ترى دماءك؟ ألا تشم رائحة جلدك القذر عليها؟ لقد أوفيت بما عليّ، وأنت الآن تتهرب، بل وتتخيل أنك تستطيع القضاء عليّ.

ولأول مرة تتحرك شفتا المنفلوطي: أنا مستعد لأي شيء تريده، ولكن اترك حفيدتي.

يضحك الكيان بوحشية ويقترب من ذراع المنفلوطي بأسنانه مرة أخرى: وماذا تملك لكي تعطيني؟

يتحدث المنفلوطي بقوة: أملك حياتك.

يضحك الكيان ثانية: أنا الذي لا اسم له لا أموت.. حياتي بيدي.. أما حياتك فهي أيضًا بيدي.

- أعوذ بالله منك. قالها المنفلوطي.

تظهر وسط الدخان الأسود ما يشبه العينين تتأججان بنيران حمراء.

- وهل تعلم من هو الله أيها النجس؟ أنا لا يقدر عليّ أحد، أنا الأقوى هنا.

- لا، الله أقوى وأعز.

يشيح الكيان بوجهه وينفث المزيد من الدخان الأسود ويقول: أراك قد آمنت يا منفلوطي واتبعت الأديان السماوية، ألم تكفر بربك من قبل وتسجد لي؟ يكمل المنفلوطي الطلسم، فتطير الصحيفة المهترئة من يده، وتحترق الحروف، إلا من حرف واحد يبقى في الصفحة وهو الواو وفوقها نقطتان، تقترب المخالب التي ظهرت من العدم ممسكة بقطعة الجلد التي خط عليها العهد، يسقط المنفلوطي جزعًا على الأرض، يقترب منه الشيء أكثر ويحاصره في ركن الغرفة، ويصرخ: أطالب بعهدي.. وتصرخ جميع أصوات الجحيم، يبدأ جسد المنفلوطي في الاشتعال، تتعالى منه رائحة الشواء، يصرخ بدوره قائلا: الله إني تبت إليك. يصرخ الشيطان ويزمجر، يتعالى صوت المنفلوطي: اللهم إني تبت إليك وبرئت إليك بذنبي فاصفح. يزمجر الشيطان بعنف، وما زالت النار تشتعل في جسد الرجل الذي قارب جلده على الذوبان، وبدأ ارتجافه يسكن، وتوقفت حركاته تمامًا وصعدت الروح إلى بارئها.

اهتزت الأرض بعنف، وأفقت من سباتي لأرى حسام جالسًا بجواري على الأرض، رباه! أما لهذا الكابوس من نهاية؟

ارفع رأسي وأنفض عني غبار النوم، أسأل حسام: كم نمت؟ يجيبني: يوماً كاملا يا سيدي. أدخل لأتوضأ وأصلي وأخاطب حسام: هيّا، وراءنا الكثير، فلا بد من وضع نهاية لهذه القضية العجيبة اليوم، هل وردت رسائل من الوالي؟

- نعم يا سيدي، لقد بعث يطمئن على الحملة.

- إذاً هلم بنا يا حسام، لا وقت لدينا.

- أخبرني يا سيدي ما أنت فاعل.

- لقد رأيت فيما يرى النائم أن الفتاة في التخشيبة تصرخ وتستنجد بي، وأنا لم أعتد أن أخذل رجلا يستنجد فما بالك بامرأة.

- ولكن الوضع معقد يا سيدي.

- نعم أعلم، ولكن الله قادر على كل شيء، أريد أن أراها.

خرج حسام لحظات وجاء بالعمدة، الذي استكمل انحناءاته وتعظيمه وخوفه الشديد.

- لن أسمح باستمرار تلك المهزلة أيها العمدة، اليوم لا بُد من الانتهاء من الأمر.

- معاليكم إن سمحت لي، الأمر بالفعل شبه منتهٍ، فنحن سنترك تلك الفتاة لتموت وتنتهي معها لعنتها.. وهكذا نكون قد قضينا على مصدر الشر كله.

- لا والله، هكذا نكون نحن مصدر الشر كله.. هيا يا عمدة. قالها سليمان بلهجة آمرة.

- إلى أين يا سيدي؟!

- إلى الفتاة.

- أستحلفك بكل غالٍ ونفيس عندك يا سيدي، اتركها فربها أدرى منا بحالها.

- تريدها أن تموت؟

- لو كنت أعلم سبيلا ما تركته.

- ولكنكم تركتم سبيل الله، الذي جعل من كل ضيق مخرجًا.

- ونعم بالله، ولكن تلك الأمور غيبيات ولقد حاولنا...

قاطعه سليمان بك بلهجة آمرة: هيا. وأمام الإصرار الشديد لم يملك العمدة إلا الاستجابة الفورية، توجهوا صوب التخشيبة وكانت الشمس قد ألقت حمولها واشتبكت بسحب محملة واصطبغت السماء بلون أحمر قانٍ وكأن السماء تعلن عن بدء المعركة.

اقترب سليمان من الباب، انحنى الخفر كلهم فور قدومه تبجيلا، وضع يده لا إراديًا على سيفه وكأنه يطمئن نفسه، أمر بفتح القفل إياه، واستعد للدخول، تنحى العمدة جانبًا بينما أمسك حسام بساعد قائده قائلا: هذه المرة أنا معك يا سيدي.

- حسام.. انتظر أنت هنا بالخارج.

- لا يا سيدي، هذه المرة لن أتركك.

نظر سليمان في عيني رفيقه وابتسم ودخلا معًا.. وعلى ضوء المشاعل وجدا الفتاة جالسة على الأرض تحرك رأسها في كافة الاتجاهات بسرعة لا معقولة، فور دخولهما الحجرة قفزت عاليًا وتمسكت بالأعمدة الخشبية لقفص التخشيبة وأطلقت عواءً طويلا، جفل حسام مما رآه، بينما اقترب سليمان من القفص، وتكلم بحزم شديد: يا هذا. إني آمرك أن تترك هذه الفتاة المسكينة.

يتشمم الشيء الهواء جهة سليمان، كحيوان مفترس جريح، ويضحك بهستيريا، تتحرك حنجرة رجولية تمتلئ بالتستوستيرون، بما لا يدع اي مجال للشك أن من يتحدث ليس الفتاة هذه المرة، تتحرك الحنجرة قائلة: أنت أيها المخلوق الضعيف تأمرني! ارحل يا دكتور طه، أنت لست بندٍ لي.

يشعر حسام بتوتر شديد ويستل سيفه من الغمد: عن أي طبيب يتحدث يا سيدي؟ -يسأل حسام- ومن هو طه هذا؟! لا يجيبه سليمان، بل يستمر في خطابه للمخلوق في جسد الفتاة: نعم آمرك باسم الله أن تخرج.

- أنا الذي لا يقدر عليّ أحد أقوى منك ومن إلهك.

- إخرس أيها اللعين، أراك جننت، إن الله خالق كل شيء، ربي ربك ورب الخلائق أجمعين..

- أرني أنظر إليه. يضحك الشيطان ويتسلق سور التخشيبة ويتعلق بالسقف.

- اترك أمر الفتاة. يتحدث سليمان بلهجة آمرة.

- إنها امرأتي الآن ولن أتركها إلا جثة، ولن أترككم أنتم أيضًا.

- إذا فأنا خصيمك أيها القذر.

- أنت لست ندًا لي، سواء كنت القائد المقاتل أو كنت الطبيب النفسي، كلكم ضعفاء، ضعفكم يفوح منكم، أشمه فيكم ويجعلني أثمل، لقد خلقتم ضعفاء. ينظر المسخ فجأة صوب حسام ويقول: أتحسب أن قطعة المعدن تلك في يدك ستحميك مني؟ يقهقه عاليًا بجنون وتزداد حدة حركات رأسه، وإذا بمقبض السيف يشتعل في يد حسام، فيقذفه هذا الأخير بعيدًا بعد أن آلمه حرقه

ليده، وأمام أعينهما يستحيل الحديد جمرة من نار ويسيل المعدن بداخله، يشهق حسام بجزع وهو يمسك بيده السليمة الأخرى المحترقة،

- ومن قال إني سأحاربك بسيف أيها الوضيع؟ قالها سليمان.

- وبماذا ستحاربني أيها القائد العظيم؟ بعلم النفس وأمراض الفصام؟ سأل الشيطان مستهزئا..

- بهذا. وأخرج سليمان المصحف الشريف من جيبه ورفعه لأعلى في وجه الشيء، ولأول مره يجفل الكائن ويسقط على الأرض فجأة ويتراجع إلى الحائط، وينكمش على نفسه، فيتقدم سليمان من التخشيبة وقد لاحت في ملامحه علامات الانتصار، يخبئ الكائن رأسه ويدفنها لأسفل، ويرتجف جسد الفتاة بقوة، وإذا بضحكات رهيبة منفرة تنطلق منه وهو دافن لرأسه بين يديه: تراني خفت من كتابك يا هذا، الغريب أنك الطبيب المتعلم وتحاول أن تجابهني بالدين والخرافات، لذلك تمكنت منكم عبر السنين والأعوام، لجشعكم وضعفكم وقلة بصيرتكم.

وينتفض مرة واحدة متعلقا بالقفص حتى يصير وجهه على قيد مليمترات من وجه سليمان.

- ومن قال إن قرآننا خرافة أيها الكافر؟

- فلماذا لا أخاف منه يا طبيب؟ أتعلم لماذا؟ لأنه خرافه.

- اخرس يا ملعون. ويفتح سليمان كتاب الله ويشرع في قراءة سورة البقرة، وإذا بجسد الفتاة يرتفع تدريجيًا عن سطح الأرض وتطفو في وسط الغرفة، يقترب منه سليمان ويستمر في التلاوة، وتبدأ علامات الألم على وجه الفتاة، وتصرخ بعنف، يستمر سليمان وقد صار ملامسًا لرأس الفتاة الذي توقف عن الحركة تمامًا، وتسقط الفتاة على الأرض لترتطم بها، ثم يرتفع جسدها مرة أخرى ليرتطم بالسقف ثم بالحائط.

يصرخ سليمان في حسام الذي كان قد توقف تفكيره تمامًا منذ برهة، واكتفى بالمراقبة وقد تدلى فكه السفلي في أبدع مثال عن العجز: حسام.. أمسك معي جسد الفتاة وثبتها معي على الأرض، سوف يقتلها... بسرعة يتحرك حسام ويستجيب لأوامر قائده الذي أخرجه بصوته من صدمته.

يكمل سليمان القراءة ويتلوى جسد الفتاة، وفجأة تسكن حركتها تمامًا، وتفتح عينيها وتعود لها طبيعتها الآدمية، يبتسم حسام ويهلل: سيدي.. لقد رحل.. لقد هزمته.. لقد هزمته.

تمتم الفتاة بشفتيها: أين أنا؟ ماذا تفعلون بي؟ يبتسم حسام في وجهها ألا تخافي، يقف سليمان ويمسح عرقا غزيرًا باردًا قد

تجمع على جبهته، وهنا تستحيل قرنية الفتاة بيضاء دفعة واحدة، وترتفع عن الأرض في مواجهتهم مرة ثانية، وتستعيد الحنجرة الذكورية، وتتمتم بكلمات لا أرضية، وتصرخ بالصوت الذكوري: ألم أقل لك أنت لست ندًا لي يا طه؟ أنا على العهد، وأنتم بني آدم الضعفاء، لطالما حلمتم بالمعاصي، لطالما طمعتم في المزيد، لطالما هزمتكم وما زلت، أنا لم أطلبكم، بل أنتم من استعنتم بي، أنا لم أغصبكم ولكنكم من سجدتم لي، وأنا لا أموت.

ويظهر من العدم الرق الجلدي وعليه عهد المنفلوطي: العهد وعد كل الإناث الأولى للمنفلوطي ملكي إذا صرن ثيّبات وحتى نهاية الكون.

ويستعيد سليمان رباطة جأشه ويتحدث: ولماذا لا نقولها ليوم الدين بدلا من نهاية الكون؟ يوم الدين قائم شئت أم أبيت أيها الملعون، ويومئذ توفى كل نفس أجرها، ولكن خوفك منه طبع على عقلك وذهنك فأنكرته، حتى لا ترى نهايتك المحتومة في النار وبئس السعير.

- أنا لست مريضًا من مرضاك أيها الطبيب، هذا الكلام تقوله لبني جنسك، أما أنا.......

- أنت أضعف مني بكثير، لا يغرنك سلطانك ولا قوتك، ولا حتى قطعة الجلد القذرة تلك فأحكامكم لا تسري إلا عليكم، يقول الله تعالى: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين"، ويقول عز من قائل: "ولا تذر وازرة وزر أخرى"، فإن كان جدها اتبعك فهي لم تتبعك ولم تسجد لك، فبأي ذنب تمتلكها؟ خذ قطعة الجلد تلك وارحل من هنا، قبل أن أنهي شقاءك فتعلم الحقيقة المطلقة وتدرك أن للكون ربًا يحميه.

- كلامك كثير وفعلك ضعيف يا طه، وأعتقد يكفينا كلامًا، كما أعتقد أنك لم ولن تعي الدرس، ولم تتعرف على غريمك حتى الآن ولم تختبر قوته، ولسوف أجعلك تسجد لي من دون إلهك، ألا ترى أن قرآنكم لم يذبحني وآياتك التي وثقت بها لم تسلسلني أو تحرقني؟ أنا أقوي من كل ذلك بكثير.

أطرق سليمان يفكر، فللأسف حتى الآن قد باءت كل محاولاته للنيل من ذلك الشيء بالفشل، لا بُد من وجود طريقة، ويضحك الكائن بعنف مستفز وقد لمح خيبة الأمل في ملامح سليمان، وضرب حسام رأسه بقبضته دلالة على الخسارة، وهنا ارتفع جسد الفتاة فوق الأرض أعلى، وظهر دخان كثيف

أحاط بهم جميعًا مع صراخ وعويل ورياح شديدة محملة بلهب لافح، رفع طه وحسام يديهما في محاولة يائسة لاتقاء اللهب، وارتفع صوت الكائن صائحًا بشماتة: هنا أنا الأقوى ولا ندّ لي، أنا سيدكم وربكم، أنا أميتكم وأتركم لتحيوا، أنا سعدكم وحزنكم، أنا غناكم وفقركم.

يقول طه في نفسه وقد علم أنها النهاية: كيف السبيل لهزيمة هذا الشيطان؟ ولا العلم ولا الخرافة ولا حتى الإيمان.. يا الله أعنّي، حتما هناك حل، وإذ به يتذكر، وينظر لأسفل فيبصر على الأرض سيف حسام الذي انصهر، ولم تبقّ منه إلا قطعة معدن صغيرة لمحها أمامه، تلك القطعة قد نقش عليها لفظة "والله أقوى وأعز"، وتذكر... تذكر كتابة حفرت على ساق فتاة بعد ما يناهز ٥٠٠ عام من الآن وكأنها رسالة شفرية لم يتبين بها غير حرف الواو تعلوه النقطتان.. تذكر لوحة سقطت من أعلى سرير في مصحة للأمراض النفسية تحمل أسماء الله، تذكر زميله وهو يخبره أن لكل اسم من أسماء الله الحسنى قوته وعبيده، تذكر أبًا مكلومًا في ابنته يرفع يديه إلى السماء داعيًا، والله هو القوي العزيز.. تذكره طلسمًا ملعونًا يحترق في يد رجل استعان بالشيطان بعهد ثم نقضه، تذكر أن الله هو القوي ونحن الفقراء إليه، تذكر لماذا

تحمّل هذا الكائن مجادلته ومخاطبته، ولماذا قام بتهديده مرات شتى إن كان قويًا بالفعل، ولمَ لمْ ينفذ تهديده بالفعل.. لماذا يتشدق هذا الكائن الكريه بقوته ويصرّ على أنه الأقوى في كل حوار دار بينهما، تذكر ما درس في كتب الطب عن عقدة العجز التي يصرّ المريض على إخفائها فيُظهر النقيض، تذكّر مفهوم الإسقاط النفسي كحيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية للآخرين حتى ليبرئ نفسه ويبعد الشبهات عنها.. تذكر قوله تعالى: "إن الذين آمنوا إذا أصابهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون". صدق الله العظيم، وبرز أمام عينيه اسم الله "القوي".. كل هذه العلامات والإشارات كانت لديه من البداية، كانت أمام عينيه ولكنه لم يدركها، لم يرقَ إلى أن يرى ما بين السطور، مثلما بعث الله البلاء فقد أرسل معه الدواء، ولكن لماذا؟ وحضره قوله تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وأنتم لا تفتنون".. ونظر ناحية الشيطان الذي طيّر الانتصار عقله فصار يصيح: أنا القوي وأنتم الضعفاء.. صرخ سليمان في حسام: ألق إليّ بقطعة المعدن تلك من سيفك.

لم يفهم حسام ولكنه بسرعة نفذ أمر قائده، وفي لحظة توقف فيها الزمن، أمسك سليمان بقطعة المعدن التي عليها اسم الله كأنه

يحتمي بمدرعات جيش كامل من جيوش البشر، ونهض وهو يرفعها فوق رأسه ويقول: يا هذا، أنت لست القوي، ولكن الله أقوى وأعز، بسم الله القوي.

واقترب من الكائن الذي سقط على الأرض من هول المفاجأة، رفع سليمان قطعة المعدن ووضعها على مفرق رأس الفتاة وقال: بسم الله القوي آمرك أيها الشيطان أن تخرج منها.. بسم الله القوي وبإيماني بالله وحده لا شريك له.. له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.. آمرك أن تفيء إلى الله.

يرتعش جسد الفتاة الضعيف، ويهتز اهتزازات قوية، يخرج دخان من رأس الفتاة من موضع قطعة المعدن، وما زال سليمان يضغط عليها بيده، يتلوى جسد الفتاة بعنف، ويصرخ الكائن ويتألم وهو لا يكاد يصدق ما يحدث: لا لا لا.. لن يهزمني بنو آدم، أنا الذي لا اسم... ويقاطعه سليمان: الله هو القوي وأنتم الفقراء إليه.. بسم الله القوي تعود روحك المدنسة الفاجرة إلى بارئها فتلقى في غيابات الجحيم.

تستمر التشنجات، ويصرخ الكائن: لا لا.. لن تكون هذه النهاية.. لن أتركك يا طه.. أقسم إني لن أتركك، أنا القو.... يرتفع صوت سليمان: بسم الله القوي.. تسلسل بين القاف

والواو والياء.. بسم الله الرحمن الرحيم، وما قدروا الله حق قدره والله هو القوي العزيز.

ظهر دخان كثيف داخل الحجرة، وبدأت دوامات من نيران في الدوران، ولكن من الجلي أنها لا تؤذي إلا الكائن، بينما لا يشعر بها سليمان ولا حسام، فقط كأنها من بعد آخر.. تحيط تلك الدوامات بجسد الفتاة، وسليمان ما زال يضغط على رأسها بقطعة المعدن، ويتصاعد دخان كثيف من موضع قطعة المعدن.. يصرخ الكائن صرخات من يكتوي بنيران الجحيم، صرخات تصمّ الآذان وتعمي العيون، تخفت الدوامات وتزول الغيوم تدريجيًا وتفتح الفتاة عينيها، وتعود لوجنتيها حمرة الحياة، تنتفض وتتأمل في ما حولها وتبسمل، يمسك بها سليمان ويساعدها على النهوض، لا تستطيع للوهلة الأولى، ثم تتحامل على نفسها وتستند على ذراعه، وتحاول المشي ولكن كمن يتعلمه للمرة الأولى، يبتسم سليمان في وجهها ويبشّ قائلا: حمدًا لله على سلامتك.

يفتح سليمان الباب ويخرج من باب التخشيبة والفتاة تستند إلى ذراعه في مشهد مهيب وكأن الزمن قد توقف ليلتقط تلك اللحظات الحاسمة في تلك البقعة البعيدة المنسية من الكون..

يفاجأون بالشمس وقد بدأت شروقها بعد ليل طويل، يجتمع العمدة والأهالي والقرية كلها غير مصدقين، الكل يشكر ويهنئ، يرفع سليمان يده إلى السماء قائلا: الشكر لله وحده.. هزمناه بفضل الله وقوته، وما كان لنا أن ننتصر إلا بفضل الله وحوله... والله ما قدرنا الله حق قدره، والله هو القوي العزيز...

ويستيقظ طه، يلملم شتات نفسه وينطلق إلى المستشفى، ويفاجأ بوالد سارة يقابله بالبشر والحبور مبشرًا: لقد أفاقت يا دكتور أفاقت، لكنها لا تذكر أي شيء عن تلك السنين اللي مضت، يدخل عليها طه مسرعًا حجرتها، فيجدها بين يدي والدتها وقد زال سواد عينيها وعادت إلى وجنتيها حمرة الحياة، تتأمل في وجهه وتقول: أنت؟! والدتها تعرّفها عليه قائلة: الدكتور طه.
تتأمل الفتاة وجه طه وتطرق كمن يتذكر، تتفوه: لقد رأيتك من قبل، نعم رأيتك و.. و.. ولكن كأنه حلم، ولكنك كنت... وتتوقف.
سألها: كنت ماذا؟ قالت: لا شيء فقط... كنت كفارس من فرسان الأساطير.

ابتسمت وضحكت وضحكنا جميعًا.. أنظر في وجهها البريء، وأتذكر ما جرى من أحداث مهولة، تأملت وجهها جيدًا فوجدت على جبينها ناحية المفرق أثر حرق قديم... حرق جراء قطعة معدنية بقيت من سيف ذاب أغلبه ولم يبق منه إلا قطعة تحمل اسم الله، وضعها فارس على مفرقها أعلى جبينها منذ أكثر من خمسمائة عام، مسحت على جبينها براحة يدي، وتذكرت فابتسمت.



في المساء حضر الدكتور عبد المطلب، وخاطبني مؤنبًا: أرأيت؟ لم يكن هناك جان ولا شياطين ولا حتى double personality الموضوع نفسي بحت، وقد عافاها الله وشفيت بالعلاج كما توقعت.

نظرت له قائلا: وبمَ تفسر إذًا اختفاء كل شيء فجأة، وهذا ليس من دأب الأمراض النفسية، فهي تظهر ببطء، وإن وفقنا وشفيت فشفاؤها أيضًا يكون ببطء.

أجابني: هل تستكثر على أستاذك أن يعالجها في ساعات؟ وابتسم، وددت أن أتحدث وأن أحكي له كل ما في جعبتي، وددت أن ألقي كل هذا الحمل الذي يجثم على صدري ولا أستطيع أن أتفوه به، تذكرت الأثر على جبهة الفتاة فابتسمت، لمح د. عبد المطلب شبح الابتسامة على جانب فمي فباغتني: ما الذي يضحكك؟ سكت لحظة ثم أجبت: طريقة علاجك الجديدة هذه المرة راقت لي بصدق. وضحكنا حتى سعلنا.

حقيقة أنا لا أعلم أي تفسير منطقي أو عقلاني لما حدث، وكيف يسافر ذهن الإنسان بين الزمان والمكان، وكيف ما يحدث في المستقبل يؤثر في الماضي مثلما يؤثر ما يحدث في الماضي على المستقبل، أسئلة كثيرة تجوب ذهني وذهنكم، هل

تستطيع كائنات أن تتحكم بنا؟ وهل نملك من القوة والإيمان ما نستطيع به حماية أنفسنا ومن نحب؟! أتذكر قول الكائن وهو يحاورني: إن الحقيقة دائمًا كانت بينة جلية، ولكننا لضعف بصرنا وبصيرتنا نرفض أن نراها، أو لربما أراد الله أن يحجبها عنا لأننا قد لا نستحق أن نراها، ويالحظه من نجح في رؤيتها قبل يوم الحساب! أسئلة كثيرة، ولكن ذهني في بحثه لا يجد إلا إجابة واحدة: "وما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز".
صدق الله العظيم.

تمت في الشرقية ٢٩ يناير ٢٠٢٠

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج . م . ع

www.Idafabooks.com